جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية

محاضرات فى

التصوف الإسلامى

بقلم الأستاذ الدكتور
محمد رشاد عبد العزيز دهمش
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بدسوق سابقا

١٤٢١-٢٩٩٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول

التصوف الإسلامي

١- منابعه

٢- أهدافه

٣- رجاله

٤- أهم نظرياته

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة واسلم على أمير الأنبياء وسيد المرسلين المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله و صحابته الأبرار الأخيار و من تبع هداهم وسار على دربهم و سلك طريقهم وحمل تعاليمهم إلى يوم الدين.

و بعد،،،،

فلا شك أن التصوف الاسلامى له آثاره العظيمة فى الحياة الروحية الاسلامية و فى المعارف المتنوعة التى تملأ الساحة الفكرية و تؤثر بصورة أو بأخرى فى الحياة اليومية و السلوك الإنسانى بوجه عام فهو بنظراته و فلسفاته و مدارسه و طرقه وآرائه و أفكاره الخاصة نحو الكون و الإنسان و الحياة و الصلة بين العبد و ربه و بين الإنسان و أخيه الإنسان ثم بينه و بين مجتمعه يوضح القيمة الحقيقية للتصوف ومنهجه الربانى الذى يسير تحت ظلال كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم و من ثمة فهو جزء من معارفنا الإسلامية و ثقافتنا الروحية و لذا فانه جدير بان نوليه عناية كبيرة وتلقى الضوء على نشأته و أهدافه و تطوره و غايته و العوامل التى أثرت فى تطوره و أثرت منابعه و بيان ما أثيرحوله من معارك وخصومات و من مدح و قدح و من رفض و قبول وتوضيح الآراء و المجادلات التى نشأت حوله وفى رحابه و التى كونت ثروة عظيمة لها آفاقها و لها أعماقها ولها أبعادها ولها أصالتها و لها إبداعاتها وكانت هذه الثروة — بكل المقاييس — نبع أصيل لرواد العلوم و عشاق المعارف.

و لقد كان للتصوف الفضل الأول في تحطيم الفلسفة المادية في الشرق حيث استطاع – بإخلاص رجاله و سلامة منهجه – أن يحطم الهجمة المادية و أن يقف في قوة و حزم و صلابة في وجه التيارات الإلحادية و المذاهب المارقة و المجون الهابط الذى غمر البيئة الاسلامية منذ ان ترك العرب صحراءهم و اطلعوا على حضارات مختلفة و اطلوا على شعوب أخرى لها ثقافات وآراء وحضارات تختلف–شكلا و موضوعا مع ثقافات الإسلام و حضارته وقيمته وتعاليه.

و لقد كان للتصوف فضل كبير و دور عظيم فى انتشار الإسلام و وصوله لأمم و شعوب لم تصل إليها جنود الإسلام و ذلك بالقدوة الصالحة و العمل المثمر و بالموعظة الحسنة و الحكمة الرزينة و التواضع الجم و الخلق القويم.

فرجال التصوف هم الذين حببوا الإسلام إلى القلوب بسيرتهم الحميدة و أخلاقهم الكريمة وعشرتهم الطيبة و حياتهم البسيطة التي تمثل روح الإسلام في يسره وسهولته وبساطته يقول: "دوار روس" في كتاب فلسفة الدين الإسلامي:– إن ظهور الفرق الصوفية التي انتشرت في بلاد الإسلام عمقت التعاليم الإسلامية و أوجدت الاتصال الوثيق بالله رحيم رحمان يفيض بالحب و يعفوا عن السيئات وهذا قول صدق و شهادة حق فالتصوف هو الذي ملأ جنبات القلوب بحب الله تبارك و تعالى و علم الناس العفة و الطهر و النقاء و الصفاء و التخلي عن الرذائل و التحلي بالفضائل و الإقبال على الله بكنه الهمة إن التصوف لموسوعة معارف كاملة شاملة، فيها العلوم و فيها الفنون و فيها الثقافة و فيها الفلسفة و اللغة و الفقه:

إنها جامعة كبرى إليها يعود العالم فيغترف من بحار علمها و إليها يرجع الأديب فيرتشف من رحيقها العذب و إليها يئوب العابد فيتزود من تعاليمها و رحم الله أبا محمد بن يحيى الذي إستمع إلى حديث القوم فإذا به يهتف من أعماقه:

أن كلا منهم لقريب العهد من الله و أن له لصولة ليست بصوله مبطل. و مع هذا كله فان التصوف أو بعبارة أدق فإن بعض الطرق الصوفية قد لحق منهجها بعض الآفات التى كادت أن تخرجها عن المنهج القويم و الطريق المستقيم الذي سلكه التصوف منذ أن خفقت راياته فوق العواصم الاسلامية و اصبح جزءا من حياتنا الثقافية و معارفنا الاسلامية و رافدا من روافد التربية الإسلامية و حاجزا قويا صلبا لصد التيارات الفكرية المنحرفة التي تزحف — تحت دعاوى الحرية الفكرية — على عالمنا الإسلامى و تحاول أن تشوه معارفنا و تضعف عقيدتنا و تعمل على ضرب مسيرتنا نحو التقدم و التطور و التنمية و الرفاهية.

و لذا رأينا أن نقدم التصوف في صورته المشرقة و حقيقته الناصعة بعيدا عن المزايدات و التجاوزات و عن التعصب الأعمى و الهوى الممقوت، لا تهدف إلا الوصول إلى الحق، و الحق وحده و لذا فإننا سوف نوجز الآفات أو نوضح بعض هذه الآفات التى لحقت بالتصوف حتى نستطيع التخلص منها و العودة بالتصوف إلى متابعه الأصلية إلى كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم.

الآفات التي لحقت بالتصوف:

لقد شاع في التصوف على مر الزمن و تتابع الأجيال عدة آفات شوهت صورته الناصعة و مسيرته المشرقة و تعاليمه النابعة من كتاب الله و سنة رسول الله الكريم و سيرة سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين و من أهم هذه الآفات ما يلي:

أولها:- العزف عن الدنيا و ترك العمل الجاد المثمر فيها و تعطيل الطاقات البشرية المنوط بها تطور الحياة و تقدم الأمم، و هذا —دون شك— سفه كبير و فهم خاطئ لمبادئ الإسلام الأخلاقية لأن الدعوة الاسلامية في مسيرتها الأولى وحتى اليوم لم تنجح إلا بجهود رجال الإسلام الأغنياء، و من المعروف أن الغنى المصحوب بشكر الله جل جلاله أساس قيام حضارة الإسلام و القرآن يحث الناس على العمل الجاد و على الأخذ بالحياة ومتطلباتها على أن تكون في يدينا لا في قلوبنا (و لا تنسى نصيبك من الدنيا) و لذلك فإن الجهل بقيم الإسلام هو الذي زين للناس أن ترك الدنيا دعوة دينية و هذا انحراف خطير فكيف ينجح دين لا دنيا له؟

ثانيا:- انهدام قانون السببية عند كثير من الصوفية فالصوفي يعتقد بأنه طالما كان مع الله جل جلاله فإن الأسباب تزول و تقضي الأسباب دون مسبباتها مع أن الله جل جلاله خلق كل شيء فقدره تقديرا وجعل لكل شيء سببا و قد علمنا من القوانين ما فيه رقي الحياة و أروع في الكون من النواميس التي لو أخذنا بها و تعاملنا معها لوصلت أوطاننا إلى ما ننشده من الرقي و الرفاهية و السعادة و لقد كان رسولنا الكريم المثل الأعلى في الأخذ بالأسباب و بجود التعمل مع توكله على الله تعالى في كل أمر من أموره.

ثالثها:- انهم حولوا اكثر أحاديث الجهاد إلى أحاديث في مجاهدة النفس استدلال منهم بالقول المأثور (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: مجاهدة النفس) مع أن هذه كلمة مروية عن أبى بكر رضى الله عنه.

رابعها:- كثرة البدع المنتشرة فى بعض طرقهم و ذلك لاشتغال كثير منهم بالعبادات وتركهم القراءة في الفقه و التشريع و لذا فقد اخطأ بعضهم في أمور فقهية كثيرة.

لذا رأيت أن اقدم القراء التصوف كما تعرفه لا كما نراه بيننا اليوم حتى تقف على الوجه المشرق للتصوف الاسلامى فى صورته الزاهرة و سيرته التى تستظل تحت ظلال القرآن الكريم و سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم.

و هذا والله اسأل أن ينفع القارئ بما جاء فى هذا الكتاب و أن يوفقنا للخير و أن يجعله فى ميزان حسناتنا يوم القيامة و أن يفتح بيننا و بين قومنا لنسير معا تحت رايات الإسلام ونرفع معا أعلامه الخفاقة.

(ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق و أنت خير الفاتحين)

هذا وبالله التوفيق،،،،

دكتور / محمد رشاد عبد العزيز دهمش

- الأصل التاريخي و الاشتقاقي لكلمتي تصوف و صوفي

ذهب جمهور المؤلفين في التصوف إلى أن هاتين الكلمتين من الكلمات المستحدثة في الملة الاسلامية، و أن البغداديين هم الذين استحدثوها و لم يشذ عن إجماع جمهور المؤلفين في علم التصوف- فيما نعلم- إلا أبو نصر السراج صاحب كتاب "اللمع" فقد ذهب إلى أن اسم الصوفي اقدم وجودا من البغداديين.

و لقد أستدل القائلون بأن اسم الصوفي مستحدث بأنه لم يكن من الألقاب التي أطلقت على الصحابة رضوان الله عليهم في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم، فلم يتميزا عن غيرهم من سائر المخلوقات إلا بشرف صحبة الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم و لم يتسم- كذلك- الجيل باسم التابعين.

و ذلك لان الإقبال على الدين في هذين الجيلين كان سمة المسلمين العامة.

هذا و عندما أقبل الناس على الدنيا و شهواتها و جنحوا إليها و انغمسوا في نزواتها و اتجهوا إلى زيناتها و الحرص عليها دعت الحاجة- وقتئذ- إلى وجود صفة يمتاز بها بعض الذين كانت لهم كبير عناية بالدين حيث تمسكوا بآدابه و حرصوا على أن يتخلقوا بأخلاقه و يخضعوا لتعاليمه و ينفذوا أوامره.

أقول دعت الحاجة إلى وجود صفة تميزهم عن غيرهم من الذين شغلتهم الحياة الدنيا عن الآخرة، وكذلك اشتدت الحاجة هذه عندما ظهرت الفرق الاسلامية على الساحة الفكرية و ادعى كل منهم انهم على الحق و انهم ينهجون نهج الدين و أن فيهم العباد و الزهاد، هنالك ظهرت هذه التسمية و انفرد بها المقبلون على عبادة الله جل جلاله دون غيرهم و اشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة و إن كان لابن تيمية رأي غير ذلك حيث يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:-

أما اللفظ الصوفي فإنه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة الأولى، و إنما اشتهر بعد ذلك، و ظاهرة عبارة "ابن تيمية" يشير إلى انتشار اسم الصوفية لا إلى أول زمن ظهوره و استعماله.

يقول الاستاذ"ماسينيون" في دائرة المعارف الإسلامية عن مادة التصوف. بأن التلقيب بالصوفي مفردا ظهر في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري و سمي به "جابر بن حيان" الكوفي صاحب الكيمياء الذي كان يدعو إلى مذهب خاص في الزهد، كما أن كلمة الصوفية بالجمع ظهرت في نهاية القرن الثاني الهجري، و لعل ما يؤيد هذا أن أول مدرسة عرفت التصوف الاسلامي ظهرت في مدينة البصرة و الكوفة.

"الأصل اللغوي لكلمة صوفي"

لقد اختلفت الأقوال و تضاربت حول حقيقة هذا اللفظ في أوضاع اللغة و مقاييسها الاصطلاحية، يقول القشيري في رسالته:-

هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال رجل صوفي و للجماعة (الصوفية) و من يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف و للجماعة متصوفة.

و ليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس و لا اشتقاق و الأظهر فيه أنه كاللقب فأما قول من قال انه (الصوف) و تصوف إذا ليس الصوف كما يقول تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه و لكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

و من قال: انهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه و سلم فالنسبة إلى الصفة لا تجئ على نحو الصوفي.

و من قال أنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول- بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله فالمعنى صحيح و لكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف.

ثم إن هذه الطائفة أشهر من يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ و إستحقاق إشتقاق.

و أما الطوس صاحب كتاب اللمع فإنه يرى أن الصوفية إنما سموا بهذا الأسم نسبة إلى اللباس الذى اصبح شعارا و رمزا لهم و هو لباس الصوف و لم ينسبوا إلى علم من العلوم- في رأيه- كالفقه و التفسير و لا إلى حال من الأحوال كالقبض و البسط و ذلك لأنهم في ليس لهم علم خاص ينسبون إليه و لا حال خاصة يقيمون عليها لأنهم في ترق متواصل في الأحوال و لذلك فقد نسبوا إلى شعار الصوف لأن ذلك دأب الأنبياء و

الصالحين فقد اثر عن عيسى عليه السلام انه كان يلبس الصوف تواضعاً بعدا عن الرياء و زهداً فى الدنيا وجاء قول عمر بن الخطاب فى الرسول عليه السلام (و لبست الصوف و ركبت الحمار و أدرقت خلفك) و كان أهل الصفة يرتدون لباس الصوف.

أما البيرونى فانه انفرد من بين الكتاب العرب فقال إن هناك صلة بين اسم الصوفى و بين (صوفيا) الكلمة الرومانية و معناها الحكيم و كان اليونان يطلقون هذا اللفظ على بعض القدماء من الحكماء الهنود الذين اشتهروا بحياة التأمل، و لكن ليس هناك دليل على ذلك سوى تقارب اللفظين فى النطق و يرجع البعض ما ذهب إليه الطوس من أنهم (الصوفية) إنما ينتهون إلى لبس الصوف و لا سيما و أن القشيرى لم يعترض على ذلك و إن رأى أن- الصوفية لا تختص بالصوف فقط و يرى أن اللغة تساعده على ذلك فإننا نقرأ إن فلانا لبس الصوف أو لبس المعبأة أو لبس المنسوج أو لبس الشعر بمعنى انه تزهد أو سلك طريق الصوفية.

و نحن لا نستبعد أن يكون للأحداث السياسية التى تهب من خلافة سيدنا عثمان و ما صحبها من أحداث غيرت-المسلمين و حولت خط سيرهم و كانت وراء ظهور الطرق و ليس من الحياة الإسلامية- تقول كانت لهذه الأحداث أثر كبير فى تلقيب طائفة معينة من المسلمين (بالتصوف) و ذلك لبعد هذه الطائفة عن مسرح الفتن و الأحداث و لجوئها إلى محاريب العبارة فرارا إلى الله بدينها.

تعريفات التصوف و الصوفي

لا شك أن تجارب الصوفية روحية تستعصي على الوصف و تعلو على التعبير و من ما فقد آثر كثير منهم الصمت فلم يحاولوا أن- يوضحوا اكتشافاتهم أو أحوالهم لأنها أمور ذوقية أو وجدانية لا تنبض لغة في التعبير عنها أو ترجمتها إلى الفاظ ولكن مع هذا لم يمتنع بعض الصوفية من وضع تعريفات للتصوف و الصوفي، اى للتصوف من حيث هو انسان يحيا هذه الحياه و هذه التعريفات التي حصلنا عليها انما تمثل الحالة الروحية الخاصة التي يحياها الصوفي و ما يشعر فيها من احساسات قد لا يشارك فيها صوفي آحر و من هنا فقد اختلفت هذه التعريفات تماما كاختلاف الصور المنعكسة في مرآه تبعا لأوضاعها المتباينة و مع ذلك فإننا نجد بعض هذه التعريفات لا تصور الحياة الروحية بل ترسم التصوف على انه طريق يصل به الإنسان إلى ربه سبحانه وتعالى و إليكم طائفة من أقوال أئمة الصوفية في تعريف الصوفي و التصوف فقد عرف بشر بن الحارث الحافي الصوفي بقوله (الصوفي من صفى قلبه لله) و عرفه بندار بن الحسين بقوله (الصوفي من اختاره الحق لنفسه فصافاه و عن نفسه فيراه و لم يرده إلى تعمل و تكليف بدعوى) و ها هو سهل بن عبد الله التستري يقول (الصوفي من صفا من الكدر و امتلأ من الفكر و انقطع إلى الله من البشر و استوى عنده الذهب والدر)، و ها هو أبو سعيد الخراز يقول و قد سئل عن الصوفي (من صفى ربه قلبه فامتلأ قلبه نورا و من دخل في عين اللذة بذكر الله) و كل هذه التعريفات تشير إلى معاني الصفاء و الغناء عن النفس و كبح

جماحها و محاربة أهواءها و اتباع السنة و الانقطاع إلى الله و د التفكير فى كل هذه الأمور و غيرها و لا بد أن تتحقق فى الصوفى.[1]

و مثل هذه المعانى أيضا نلاحظها فى تعريفات التصوف يقول البغدادى و هو من أكابر مشايخ القوم (التصوف مبنى على ثلاث خصال هو التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل و الإيثار، و ترك التعرض و الاختيار[2]) و سئل الشلبى عن التصوف فقال: بدؤه معرفة الله و نهايته توحيده.

و يقول أبو بكر الكنانى: التصوف صفاء و يشاهده[3] و أما معروف الكرفى فانه يقول:

(التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق)

و يقول الجنيد:

التصوف ذكر مع اجتماع و وجد مع استماع و عمل مع اتباع[4] و يقول أيضا: (التصوف تصفية القلب من موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية و إخماد الصفات البشرية و مجانبة الدواعى النفسانيه، و منازله الصفات الروحيه و التعلق بالعلوم الحقيقية و استعمال ما هو أولى على الأبديه و النصح لجميع الأمه والوفاء لله على الحقيقة باتباع الرسول صلى الله عليه و سلم فى الشريعة.[5]

---

(1) ص ٩١ الحياة الروحية فى الإسلام د / محمد مصطفى حلمى.

(2) ص ٢٠١ عوارف المعارف للسهروردى ج ١ تحقيق د / عبد الحليم محمود.

(3) أبحاث التصوف د / عبد الحليم محمود ص ١٨٤ مع المنقذ من الضلال.

(4) ص ١٢٦ الرسالة القشيرية.

(5) ص ٦٢ الحياة الروحية فى الإسلام.

العوامل التي أثرت في التصوف الإسلامي

لقد دار أخذ ورد و اختلاف حول العوامل أو المصادر التي أثرت في التصوف الاسلامي و ذلك منذ أخريات القرن الماضي و استر ذلك الخلاف بل و اشتد أمره و اتسعت رقعته في الثلث الأول من هذا القرن. فمن الباحثين من يرى أن التصوف الاسلامي إنما هو وليد ظروف و مؤثرات خارجية وليتهم اتفقوا عليها.

و من الباحثين من احذ يبحث عن هذه العوامل في التصوف الهندي، بينما زعم آخرون أن التصوف الإسلامي نتاج فارسي خالص في حين حاول البعض أن يفسر بعض الظواهر الصوفية الإسلامية في ضوء الطقوس المسيحية وحدها بينما اتجه غيرهم إلى الأفلاطونية الحديثة فنسبوا إليها كل الآراء الصوفية الدقيقة.

و ذهب جماعة آخرون إلى أن التصوف ثمرة إسلامية صوفه لا تحمل في ثناياها اثر مؤثر خارجي و ينبغي- في رأيهم- أن تشرح و توضح في ضوء تعاليم القرآن و أعمال النبي و أصحابه فقط و نحن نقول لهؤلاء و هؤلاء بأن المغالاه طابعكم و أن هذا الخلاف الذي يملأ صفحات أبحاثكم لا طائلا تحته، ذلكم لأن التصوف ظاهرة روحية و ثقافية تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل- و مؤثرات[6] و لا شك في أن تعاليم الإسلام و مبادئه و في سيرة الرسول و هديه و في نور القرآن و إرشاده المنبع الأول

---

(٦) ص ١٣٢: في الفلسفة الاسلامية منهج و تطبيق د / إبراهيم مدكور.

و الأصيل فى نظر المسلمين عامة– منه اخذوا و بنوره إهتدوا ومن فان البيئة الاسلامية بل و غير الاسلامية لم تسلم من دخيل و لم تنج من رجال وآراء سرت اليها ممن اعتنقوا الاسلام أو ممن استظلوا بظلاله مع احتفاظهم بادیانهم ونحن نعلم ان ظاهرة التأثير والتأثر ظاهرة عالمية و نحن نعلم كذلك ان من الافكار ما يجرى مجرى الهواء دون ان يعرف له اصل واضح و لا مصدر صريح ولا ننسى كما يقول العقاد ان–الافكار والآراء ليست ملكا لاحد على التخصص و ان اصلح الآراء لهى تلك التى تتمخض عنها البديهة[٧] العامة و مهما يكن من شىء فان العوامل التى أثرت فى التصوف بعضها داخلى و بعضها خارجى.

١–فالمؤثرات الخارجية هى بايجاز شديد:

أ–النصرانية:

لاشك أن للمسيحية وجودا فى حياة العرب و أن من رجالها من كان يبشر بوجود نبى قادم بل وكان منهم من ينتظر قدومه. و أنه سوف يغسل قدميه إلى حد تعبير ورقة بن نوفل و كان هناك اتصال بين الصوفية و رجال النصرانية و أخذت آيات من الإنجيل تظهر فى أقوالهم و قد روية قصة فى الكامل للمبرد توضح هذه الظاهرة و خلاصتها أن راهبين قدما من سوريا إلى البصرة فقال الواحد للآخر ألا تذهب لزيارة الحسن البصرى فحياته كحياة المسيح و قال الذهبى فى كلامة عن صاحب كتاب "اللمع" أبى نصر السراج الطوسى خرجت مع أبى عبد الله الروذبارى لنلقى لنليا

---

[٧] ص ٣٩ العقاد: الشيوعية و الإنسانية.

الراهب فتقدمنا إلى ديره و قلنا له ما الذى حبسك هنا فقال أسرتنى حلاوة قول الناس لى يا راهب.

و الأثر إليهم الذى تركته النصرانية -كما يرى البعض- فى حياة التصوف هى (نظرية الحب الإلهى) فقد مر المسيح عليه السلام بثلاثة قد نحلت أجسامهم و اصفرت وجوههم فقال ما أتى بكم إلى هنا فأجابوا: خوفا من النار، فرد عليهم (إنكم لتخافون شيئا مخلوقا و خليق بالله أن يخلق من يخشاه) ثم مر بثلاثة آخرين أشد ضعفا من الأولين و أكثر صفرارا و سألهم مثل ما سأل السابقين فأجابوا: (شوقا إلى الجنة) فرد عليهم (رغبتهم فى شىء مخلوق و جدير بالله أن يمن على من يرجوه) و أخيرا مر بثلاثة فى غاية التحول و الاصفرار و سألهم فأجابوا: (محبة الله) فهتف المسيح: (أنتم أقرب الناس إلى الله)[٨].

ب-الأفلاطونية الحديثة:

لقد سيطرت الثقافة اليونانية على العقول و النفوس فى الشرق منذ فتوح الاسكندر، و ظلت كذلك حتى كان المسلمون الذين أقبلوا على حضارات غيرهم من الأمم القديمة يقتبسون منها و يتأثرون بها و من المعروف أن التصوف أفلوطين مصدرا ثابتا معروفا و هو كتاب الربوبية المنسوب خطأ إلى أرسطو و قد ترجم إلى العربية و لقد كان ذو النون المصرى من دارس هذه الفلسفة و هو من المغرمين بالعلم القديم و لا يبعد أنه قد وقف على شىء من مذهب الأفلاطونية الحديثة الذى فعل فعله و أتى أكله فى حياة الفكر و الروح الإسلاميين و أن الصوفية قد وجدوا منهلا عذبا فى هذا

(٨) ص ٣٨ التصوف الإسلامى العربى عبد اللطيف الطباوى.

المذهب و خاصة و أن (أعرف نفسك بنفسك) شعار سقراط قد وصل إلى المسلمين و قد صبغ بالأفلاطونية الجديدة فأثر في كثير من أذواق الصوفية و مشاهداتهم.

نظرية المصدر الهندي:

على أن هناك فريقا من العلماء يذهب إلى أن مصدر الحياة الروحية في الإسلام هندي. و يعتمد هؤلاء في تأييد وجهة نظرهم على ما يلاحظ من أوجه الشبه بين بعض مظاهر التصوف النظرية و العملية في الإسلام، و بين ما ورد في بعض الكتب الدينية الهندية من عقائد و أدعية و أناشيد، و ما يصطنعه فقراء الهنود و زهادهم من طرق في الرياضة و العبادة و التفكر و الذكر و المعرفة.

و يعد أبو ريحان محمد بن أبي البيروني (٣٥١-٤٤٠ هـ=٩٦٢-١٠٤٨ م) خير من كتب عن الهند، و أدق من وصف أحوالهم، و عرض لعقائدهم و علومهم و مذاهبهم الدينية و الفلسفية، لاسيما أن كان عالما باللغة السنسكريتية، و عاش في الهند زمنا طويلا، و وضع في ذلك كتبا أهمها: (تحقيق ما بالهند من مقولة، مقبولة في العقل او مرذولة). و لم يقف البيروني في هذا الكتاب عند حد العرض و الوصف و نقل النصوص؛ بل تجاوز هذا كله إلى الموازنة و الإبانة عن أوجه الشبه بين ما يعرضه من عقائد الهنود و حكمتهم و بين أنظار اليونان و مذاهبهم الفلسفية من ناحية، و بينها و بين أذواق الصوفية المسلمين و أقوالهم و طرقهم في الرياضة من ناحية أخرى. و الذي يعنينا هنا هو أن نتبين مع البيروني إلى أي حد يقع التشابه بين المذاهب الهندية في الرياضة و المجاهدة و العبادة و المعرفة

براتها عند صوفية المسلمين، و هو ذلك التشابه الذى أتخذ منه كثير من المستشرقين أساسا أقاموا عليه نظريتهم القائله بأن مصدر التصوف الإسلامى هندى.

فمن الأشياء التى أبان البيرونى عن وجه الشبه فيها بين حكماء الهند و اليونان من ناحية، و بين صوفية المسلمين من ناحية أخرى، القول بأن المنصرف بكليته إلى العلة الأولى متشبها بها على غاية امكانه، يتحد بها ترك الوسائط، وخلع العلائق و العوائق[9].

و منها القول بالتناسخ الذى يدور حول تردد النفوس الباقية فى الأجسام البالية، و إنتقالها من بدن إلى بدن، و ما يترتب على ذلك من قول بالحلول: فبعد أن أبان البيرونى أن التناسخ هو من أخص خصائص الفلسفة الدينية للهنود، و أنه فى رأيه علم النحلة الهندية حتى إن من لم ينتحله لم يك منها، و لم يعد من جملتها[10]، نراه يقول: "... و إلى هذا المعنى ذهب من الصوفية من قال: إن الدنيا نفس نائمة، و الآخرة نفس يقظانة. و هم يجيزون حلول الحق فى الأمكنة كالسماء و العرش و الكرسى. و منهم من يجيزه فى جميع العالم و الحيوان و الشجر و الجماد، و يعبر عن ذلك بالظهور الكلى وإذا أجازوا ذلك فيه لم يكن لحلول الأرواح بالتردد عندهم خطر"[11].

---

(9) تحقيق ما للهند من مقوله: ص ١٦ .

(10) نفس المرجع ص ٢٢-٢٩ .

(11) تحقيق ما للهند من مقوله: ص ٢٩ .

و منها كيفية الخلاص من الدنيا، و صفة الطريق المؤدى إلى هذا الخلاص، و ما يحصل عندئذ من المعرفة. و فى ذلك يقول البيرونى: إن النفس مرتبطة فى العالم، و إن لرباطها سببا، وسبب الوثاق هو الجهل، و خلاص النفس هو إذن بالعلم إذا أحاطت بالأشياء إحاطة تحديد كلى مغن عن الاستقراء ناف للشكوك. و استشهد فى هذا المقام بقول صاحب الكتاب (باتنجل) و هو : "إفراد الفكرة فى وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشيء غير ما أشتغل به. و من أراد الله أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناء واحد بسبب"[12]. حتى يقول: "و من بلغ هذه الغاية" غلبت قوته النفسية على قوته البدنية، فمنح الأقدار على ثمانية أشياء، بحصولها يقع الاستغناء ... " و عد هذه الأشياء الثمانية[13]. و قد عقب البيرونى هنا بقوله: " و إلى مثل هذا أشارت الصوفية فى العارف إذا وصل إلى مقام المعرفة، فإنهم يزعمون أنه يحصل له روحان: قديمة لا يجرى عليها تغير و اختلاف، بها يعلم الغيب، و يفعل المعجز، و أخرى بشرية للتغير و التكوين"[14].

و منها اتحاد النفس بمعقولها، و ما يؤدى إلى هذا الاتحاد فى طريق (باتنجل) و الصوفية. و أخص خصائص طريق (باتنجل) هذا هو أن صاحبه لم يكن يرى أن إقامة الشعائر الدينية، و أداء فروض العبادة، هما سبيل الإنسان إلى السعادة؛ بل سبيل السعادة عنده هو الذكر الدائم لاسم الله، و

---

[12] تحقيق ما للهند ص ٣٤ .
[13] نفس المرجع و الصفحة.
[14] نفس المرجع و الصفحة.

لتأمل المتصل فى الله، فإن الذكر و التأمل ينتهيان بمن يأخذ بهما و يروض نفسه عليهما إلى اتحاده بالله و بالكون اللذين ليس إلا حقيقة واحدة، مذهب تصوفى روحى خالص، قوامه الخلوة و الانفراد عن كل شىء، و الزهد فى كل شىء، و الرياضة الروحية التى يفنى فيها الإنسان عن كل شيء حتى عن نفسه، فإذا هو يستشعر في هذا كله سعادة لا تجاوزها سعادة، و طمأنينة لا تعادلها طمأنينة[١٥]. و قد كشف البيرونى عن أوجه الشبه بين طريق (بانتجل) هذا و طريق الصوفية فقال: "و إلى طريق (بانتجل) ذهبت الصوفية فى الاشتغال بالحق فقالوا: ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولى الحق على اشارتها بافنائها عنك، فلا يبقى مشير و لا إشارة. و يوجد فى كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد، كجواب أحدهم عن الحق: و كيف لا أتحقق من هو أنا بالانية، و لا أنا بالاينية، إن عدت فبالعودة فرقت، و إن أهملت فبالإهمال خففت و بالاتحاد الفت؛ و كقول أبى بكر الشبلى: اخلع الكل تصل إلينا بالكلية، فتكون و لا تكون، اخبارك عنا، و فعلك فعلنا؛ و كجواب أبى يزيد البسطامى و قد سئل: بم نلت ما نلت؟ إنى انسلخت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها، ثم نظرت إلى ذاتى فإذا أنا هو . . . "[١٦].

و على هذا النحو نرى البيرونى يفيض فى وصف فلسفة الهند الدينية، و مذاهبهم فى الله، و الموجودات الحسية و العقلية، و تعلق النفس بالمادة، و

---

[١٥] محاضرات فى الفلسفة العامة و الفلسفة الشرقية ألقاها الدكتور محمد مصطفى حلمى بكلية أصول الدين: الطبعة الثانية سنة ١٩٣٧ م، ص ١٤٩ .

[١٦] تحقيق ما للهند ص ٤٣ .

تناسخ الأرواح، و طريق المعرفة و السعادة، و كيفية الخلاص من الدنيا؛ و هو في كثير من هذه المواضع يقرن بين عقائد الهند و الإسلام و النصرانية و مذاهب الفلسفة اليونانية و الأفلاطونية الجديدة و الصوفية. و لعل أهم العقائد الهندية التي لعبت دورا هاما في التصوف الإسلامي هي عقيدة تناسخ الأرواح، و ما تطلب إليه من مذهب في الحلول و وحدة الوجود، و في اتحاد العقل و العاقل و المعقول، بحيث يصير هذا نله شيئا واحدا.

و قد سار على نهج البيروني طائفة من العلماء المستشرقين أمثال: هورتن، و بلوشيه، و ماسينيون، و جولدزيهر، و براون، و أووليرى. و كثير غيرهم ممن يضيق المقام عن ذكرهم، و تفصيل آرائهم في تأثير التصوف الإسلامي بالمذاهب الهندية المختلفة. و يكفي أن نشير هنا إلى ما يراه الأستاذ ماسينيون في أن بحث الأطوار التي أدت إلى إدخال الذكر في طرق الصوفية المتأخرين قد دل على تسرب بعض طرائق الهنود إلى التصوف الإسلامي؛ و إلى ما يراه الأستاذ براون في بعض أوجه الشبه الظاهرة بين المذاهب الصوفية في صورها الأولى و بعض المذاهب الهندية، لا سيما الفيدانتا سارا[17]، ولو أنه ينظر إلى هذا التشابه على أنه مبالغ فيه، إذ هو

---

(١٧) الفيدانتا سارا مدرسة هندية قديمة أشتق أسمها من (الفيدا) و هو كتاب آرى مقدس مكتوب باللغة السنسكريتية. و معنى (الفيدا) هو معرفة المجهول عن طريق الدين في حين أن معنى (الفيدانتا) هو تكميل الفيدا. و يشتمل كتاب (الفيدا) على أوردة تعبدية و أناشيد دينية و رقى سحرية. و يرجع تاريخ مدرسة (الفيدانتا) إلى القرن الخامس بعد الميلاد و يعد مذهبها أكثر المذاهب تصورا للديانة البرهمية. و لقد كانت عناية هذه المدرسة موجهة بصفة خاصة إلى شرح (الفيدا)؛ إلا أن مذهبها ما لبث إلا أن أستحال إلى فلسفة نظرية فيها عمق و طرافة. و أخص ما كان يمتاز به ذلك المذهب هو القول

عنده سطحي أكثر من أن يكون جوهريا. و إلى ما يزعمه جولدزيهر من ان نصه حياة إبراهيم بن أدهم الذى يقال أنه كان من الأمراء، و لكنه تخلى عن الإمارة و آثر حياة الزهاد، هى بعينها قصة بوذا، و إن أستعمال المسابح مستمد من البوذية، و إلى ما يذهب إليه الأستاذ أوليرى من أنه لا ينبغى إغفال ما يحتمل أن يكون للبوذية من تأثير على التصوف الإسلامى، إذ شاعت التعاليم البوذية فى بلاد الفرس و ما وراء النهر فى العصر الجاهلى، و وجد بعض المعابد البوذية فى بلخ إحدى مدن فارس. و مع ذلك فإن الأستاذ أوليرى يرى أن البحث الدقيق لا ينتهى إلى أن الأثر البوذى كان ذا خطر عظيم فى التصوف الإسلامى، لا سيما أن التشابه الذى يوجد بين النيرفانا البوذية و الفناء الصوفى إنما هى تشابه سطحى: فالمذهب البوذى فى النيرفانا هو المذهب الذى يصور النفس الإنسانية و قد فقدت فرديتها فى طمأنينتها المطلقة التى لا تشوبها شائبة من حس أو شهوة: و المذهب الصوفى فى الفناء، و إن كان يدعو كذلك إلى فقدان الفردية، إلا أنه ينظر إلى البقاء الدائم على أنه يوجد فى المشاهدة الذوقية للجمال الإلهى. و هنا ينتهى الأستاذ أوليرى إلى أن هناك مقابلا هنديا للفناء الصوفى، غير أن هذا المقابل ليس فى البوذية، و إنما هو فى وحدة الوجودالتى جاءت فى الفيدا.

بوحدة الوجود، و إنكار الوجود على كل الكائنات الجزئية فى ذاتها، و الاعترلف لها به على قدر ما فيها من عنصر إلهى مستمد من إلاههم (براهما): فليس طريق النجاة و السعادة فى الزهد و التعبد فحسب، و إنما هو أيضا فى أن يعرف أن (براهما) فى كل شيء، و أن كل شيء هو (براهما).

و لقد كان اشتراك التصوف الإسلامي مع الديانة البرهمية في عقيدة وحدة الوجود من أهم الدوافع التي حملت بعض الباحثين على اعتقاد أن مصدر التصوف التيوزوفي[18] لا يمكن أن يكون إسلاميا، و ذلك ما يلاحظ من تعارض بين وحدة الوجود و هي الفكرة الكبر في هذا التصوف و بين عقيدة الإسلام الرئيسية في التوحيد. على أننا إذا أمعنا النظر في هذا التعارض ألفيناه ظاهريا أكثر من أن يكون جوهريا، و تبينا أن ما ينتهي إليه الصوفية من إثبات لوحدة الوجود، ليس في الحقيقة إلا ضربا جديدا من تذوق العقيدة الإسلامية في التوحيد، و الا لونا مستحدثا من ألوان التعبير عنها، تأثر فيه الصوفية المتأخرين بما عرفوه و أساغوه من حكمة الهند و دينهم، و فلسفة اليونان و أنظارهم، و بغير هذا من ثقافات الأمم القديمة ذوات الحضارات الراقية التي اتصل بها المسلمون ألوانا مختلفة من الاتصال في عهود تاريخهم المتعاقبة، و في العهد العباسي بنوع خاص.

هذا هو مجمل الملحوظات و الآراء التي يقدمها من ذكرنا من العلماء، و هي ملحوظات و آراء بعضها صحيح من الناحية الموضوعية، و بعضها الآخر ما يزال في حاجة إلى مزيد من التحقيق. و لكن ليس من بينها على أي حال ما يقوم دليلا قاطعا على أن نشأة التصوف الإسلامي، فضلا عن نشأة الزهد، ترجع أحدهما أو كلتاهما إلى مصدر هندي. و لعل كل ما هنالك من طرافة في هذه الملحوظات و الآراء أنها تقارب بين بعض التعاليم النظرية و العلمية في التصوف الإسلامي. و ما يمكن أن يعد نظريا لها أو

---

(١٨) التصوف التيوزوفي هو التصوف الإشراقي الذي يدور المذهب الرئيسي فيه على اتحاد العبد بالرب.

شبيها بها فى بعض المذاهب البراهمية و البوذية التى انطوت عليها الكتب و التعاليم المعروفة عن هاتين الديانتين الهنديتين. و ليس من شان هذا التقارب الذى يقرره نعض هذه الآراء أن ينفى ما سبق أن أثبتناه آنفا، و هو أن نشأة الحياة الروحية فى الإسلام كانت إسلامية، و أن مصدر الزهد الذى جنح إليه الزهاد الأولون هى حياة النبى صلى الله عليه و سلم، كما أن منبع المصطلحات الصوفية و المذاهب التى أقيمت على أساس من الذوق و الوجود هو الكتاب و السنة. و إلا فنحن لكى نثبت أن مصدر الحياة الروحية الإسلامية هندى، برهمى أو بوذى، مضطرون إلى أن نثبت أولا أن بعض التعاليم البراهمية أو البوذية فى الزهد و الفقر و التفكر كانت شائعة فى تلك البيئة العربية التى نشأ فيها محمد صلى الله عليه و سلم، سواء قبل الإسلام أو بعده. تلك لعمرى مسألة ما زال يعوزها الدليل المادى الذى لا شبهة فيه و لا غبار عليه، و اكبر الظن أن المسلمين لم يعرفوا العقائد و الفلسفة و العلوم الهندية معرفة دقيقة مفصلة قبل أن يؤلف البيرونى كتابه القيم (تحقيق ما للهند من مقولة)، و هو ذلك الكتاب الذى يعد بحق أهم المراجع و أدقها و أوفاها فى ذلك الباب. و نحن نعلم أن البيرونى انتهى من وضع كتابه هذا فى الربع الأول من القرن الخامس للهجرة، أى فى وقت متأخر عن الوقت الذى كان قد بدأ يتحنث فيه النبى صلى الله عليه و سلم، و يتقشف أصحابه، و يكثر من بعدهم الزهاد و العباد، بل و عن الوقت الذى بدأ الزهد يستحيل فيه إلى علم نظرى و عملى له أذواقه و مجاهداته و حقائقه و مشاهداته، يعرف تارة باسم علم التصوف، و تارة أخرى باسم علم الباطن، و أطوارا مختلفة بأسماء أخرى تدل على مبلغ ما عرض لموضوعه من اتساع النطاق، و لمذاهبه من امتداد الآفاق.

وهب أننا سلمنا جدلا برأى من قال بالتشابه بتن وحدة الوجود البراهمية و الاتحاد الصوفى، أو برأى من قال بهذا التشابه بين النيرفانا البوذية و الفناء الصوفى، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نقرر لمجرد هذا التشابه أن الاتحاد أو وحدة الوجود أو الحلول عند الصوفية مستمد من العقائد المقابلة فى الديانة البراهمية، و لا بأن الفناء أو الغيبة عن الحس و الانسلاخ من النفس عند الصوفية مردود إلى التيرفانا البوذية؛ بل إنه ستظل هناك فروق جوهرية بين هذه و تلك؛ هذا من ناحية، و من ناحية أخرى فإن إنتهاء مذهبين إلى نتيجة واحدة، أو إلى نتيجتين متشابهتين، لا يعنى دائما أن أحد هذين المذهبين متأثر بالآخر او مستمد منه؛ و إنما هو يعنى أيضا أن نفوس الذاهبين إلى هذين المذهبين قد خضعت لظروف و أحكام نفسية واحدة، الأمر الذى لا بد معه من أن تنتهى هذه النفوس إلى نتيجة واحدة، أو إلى نتائج متشابهة.

وجماة القول أن الأثر الهندى فى التصوف الإسلامى، أو فى أى مظهر من مظاهر الحياة الروحية أو العقلية الإسلامية، كان ما يزال ضعيفا حتى إشراف القرن العاشر للميلاد على النهاية (أواخر القرن الرابع للهجرة)، لا سيما إذا قيس بالأثر الأفلاطونى الجديد، أو بآثار النصارى من النساطرة و اليعاقبة فى تاريخ الحضارة الإسلامية. و هذا ينتهى بنا إلى أنه إذا كان ثمة تشابه بين التصوف الإسلامى فى أى صورة من صوره الأولى و بين بعض التعاليم البراهمية و البوذية، فليس معنى هذا أن الصوفية أخذوا عن هذه أو تلك، وتأثروا بها فيما عكفوا عليه من زهد وعبادة و رياضة و مجاهدة، و ما عمدوا إليه من تأسيس علم ذوقى روحى موضوعة الحقيقة العلمية، و غايته

معرفة اليقينية و السعادة الحقيقية، و إنما معناه أن تلك العناصر الهندية من نظرية و عملية قد شاعت بين الصوفية بعد أن كان قد تحنث نبيهم صلى الله عليه و سلم، و زهد أصحابه و تقشفوا بل و بعد أن كان قد ظهر زهادهم وعبادهم، و استحال هذا كله إلى علم لسلوك طريق الله يعرف باسم علم التصوف، فوجد فريق من الصوفية بعد أن كان قد تحنث نبيهم صلى الله عليه و سلم، و زهد أصحابه و تقشفوا، ظن فريق من الباحثين أن بعض المذاهب و الأذواق الصوفية مستمد من مصدر هندى، و الواقع أن هذه المذاهب و الأذواق قد نسجت لأول مرة من خيوط إسلامية بحتة، غير ان بعضها اصطبغ بصبغة هندية، فى حين أن بعضها الأخر اصطبغ بصبغة فارسية، أو نصرانية، أو يونانية، على الوجه الذى سنبينه من خلال ما سنذكره عن بقية المصادر الأخرى للحياة الروحية الإسلامية.

د-نظرية المصدر الفارسي:

و الذين يذهبون إلى ان للتصوف الإسلامى مصدرا فارسيا يستدلون على ذلك بما يحدثنا به التاريخ من وجود صلات اجتماعية و ثقافية و دينية بين الفرس و العرب فى مختلف العصور، كما يستدلون بأن فريقا كبيرًا من شيوخ الصوفية الأفذاذ الذين ظهروا فى العهود الأول للتصوف كانوا من الفرس. غير أن اتصال العرب بالفرس، و إن كان صحيحا من الناحية التاريخية، فإننا لا نستطيع مع ذلك أن نتبين فى وضوح وجلاء أن العقائد الدينية الفارسية، و الأنظار الفلسفية، قد انتقلت عن طريق هذا الاتصال فى صورة واضحة إلى العرب، و تغلغلت فى نفوسهم وعقولهم تغلغلا قويا يمكن أن يقال معه: أن التصوف بصفة خاصة كان أثرا من آثاره و ثمرة من ثمراته. و ها هو ذا الأستاذ براون، و هو من أكبر الباحثين فى تاريخ الفرس وحياتهم

العقلية و الشعورية و الأدبية و الاجتماعية، يقول في هذا الصدد: "إن جهلنا بما كان شائعا من الأفكار في العهود الساسانية من شأنه أن يجعل دراسة هذه المسألة دراسة معتمدة على المنهج التاريخي المقارن أمرا عسيرا جدا". و هذا يعنى بعبارة أخرى أن الأثر الفارسي في الحياة العربية أبان العصر الجاهلي لم يكشف عنه بعد، كشفا واضحا سريعا يكفي لإثبات أن الحياة الروحية الإسلامية قد استمدت من مصدر فارسي، بخلاف ما كان عليه ذلك الأثر الفارسي في الإسلام، و في العصر العباسي بنوع خاص: فقد كان هذا العصر حافلا بكثير من حملة العلم و أصحاب النحو و أهل الحديث و التفسير و المتكلمين و غيرهم من الصفوة الممتازة، الذين كانوا سوادهم الأعظم فرسا عاشوا في ظل الإسلام. يضاف إلى هذا أن الصلاة الاجتماعية و السياسية بين الفرس و المسلمين وقتئذ كانت من القوة و الوثاقة، بحيث لا يمكن انكار ما أنتجت هذه الصلاة من آثار قيما في الحياة العربية الإسلامية على أختلاف نواحيها.

اما أن التصوف الإسلامي مستمد من مصدر فارسي لأن فريقا كبيرا من شيوخ الصوفية كان من الفرس، فذلك ما لا نستطيع أن نقر عليه القائلين به: صحيح أنه كان من صوفية الفرس من ترك أثر لا يمحو من تاريخ الحياة الروحية الإسلامية بصفة عامة. و في تطور التصوف و استحالته إلى علم بصفة خاصة. و من هؤلاء معروف الكرخي المتوفي سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ هـ، و أبو يزيد البسطامي المتوفي سنة ٢٦١ هـ. و لكن ليس أقل من هذا صحة أن ازدهار الحياة الروحية الإسلامية و اصطباغ التصوف فيها بالصبغة العلمية، لم يكن أثرا من آثار ث صوفية الفرس وحدهم، و إنما هو كذلك ثمرة يانعة من ثمرات هذه الجهود الرائعة التي بذلها كثير من صوفية العراق و مصر و الشام؛ فقد كان أبو سليمان الداراني المتوفي سنة ٢١٥ هـ

صوفيا عربيا عراقيا من واسط بين الكوفة و البصرة؛ و كان ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ صوفيا مصريا يقال أنه ولد من أبوين نوبيين او قبطيين؛ و لهذين الصوفيين، و كثير غيرهما من الصوفية غير الفرس الذين يضيق المقام عن ذكرهم نفحات صادقة، وصفحات مشرفة، في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية؛ و لعل هذه الصفحات، و تلك النفحات، ليست اقل خطرا في ترقية التصوف الإسلامي، مما كان لنظيراتها عبد صوفية الفرس؛ بل و لعل من صوفية العرب أنفسهم من كان له أثر كبير في صوفية الفرس، و يكفى أن نذكر في هذا المقام محيى الدين بن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ، و شرف الدين عمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ، و قد كان كلاهما عربيا أصيلا، أو منحدرا من أصل عربى على الأقل، كما كان لكل منهما فضل كبير في إقامة التصوف التيوزوفى على دعائم قوية فيها طرافة روحية وجدة فلسفية؛ ناهيك بما كان لأولهما من أثر قوى في تصوف كثير من صوفية الفرس أمثال العراقى المتوفى سنة ٦٨٦ هـ، و أوحد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٦٩٧ أو سنة ٦٩٨ هـ، و عبد الرحمن الجامى المتوفى سنة ٨٩٨ هـ؛ و ناهيك أيضا بما تلقاه مؤلفات هذا الشيخ الأكبر بصفة عامة و كتابه (فصوص الحكم) بصفة خاصة، و من عناية متصوفة الفرس بدراستها و شرحها في الأيام الأخيرة.

و هذا ينتهى بنا إلى أن مصدر التصوف الإسلامى الأول ليس فارسيا، و أنه إن صح أن لصوفية الفرس أثرا في الحياة الروحية الإسلامية، فإنما كان ذلك بعد الإسلام، و بعد أن كان تحنث النبى صلا الله عليه و سلم، و تعبد الصحابة و التابعين، و زهد الزهاد، قد تجمع كله، و استحال إلى علم لقواعد السلوك، و بواطن القلوب، و أسرار النفوس. هنالك أخذ صوفية

الفرس بنصيبهم في تلك الحركة الروحية النظرية و العملية، كما أخذ صوفية العرب بحظهم منها؛ و هنالك اختلط العرب و الفرس، و امتزجت عقائدهم، و تشابهت مذاهبهم، و تضافرت جهودهم، فكان من ذلك كله هذا الازدهار الذي ظفر به علم التصوف.

على أن ثمة شبها ظاهرا بين بعض العقائد و النزعات الفارسية القديمة و بعض التعاليم و المذاهب الصوفية الإسلامية: فالزهد في التصوف الإسلامي يشبه الزهد يشبه الزهد و الرهبنة في الديانة المانوية[19]، كما يشبه الزهد و القناعة و النهي عن ذبح الحيوان في الديانة المزدكية[20]. و عقائد الشيعة و غلاتهم في حق الملك الإلهي، و من حلول الله في الامام، تكاد تكون صورا جديدة لعقائد فارسية قديمة. و لقد شاعت هذه العقائد فيما شاع بين المسلمين من تراث الفرس القديم، و وجدت من الشيعة من اعتنقها و تعصب لها، و من الصوفية من تلقاها بالقبول، و تأثر بها عن قصد أو عن غير قصد. و مذهب الصوفية في الحقيقة المحمدية، و أنها أول مخلوق خلقه الله، و منه تفرعت كل المخلوقات الأخرى علوية و سفلية، تشبه إلى حد بعيد ما ورد في الكتاب الزرادشتي المعروف باسم (زند أفستا) و هو أن هرمز إله الخير في ديانة زرادشت لم يخلق الكون بما فيه من كائنات روحية و مادية خلقا مباشرا، بل خلقه بواسطة الكلمة الإلهية[21].

---

[19] نسبة إلى ماني مؤسسها الذي ولد سنة ٢١٥ أو سنة ٢١٦ م، كما يقول البيروني في الآثار الباقية.

[20] نسبة إلى مؤسسها مزدك الذي ولد سنة ٤٨٧ م.

[21] ابن الفارض و الحب الإلهي للدكتور محمد مصطفى حلمي: ص ٢٨٨ .

و مع هذا كله، فإن أيا من ألوان هذا التشابه لا يدل دلالة قوية على أن المصدر الأول للتصوف الإسلامى كان فارسيا، و لعله إن دل على شىء فإنما يدل على أن الصلات الثقافية و الدينية التى نشأت بين الفرس و العرب، و قد انضموا جميعا تحت لواء الإسلام، قد ترتب عليها أن اختلطت الأفكار و العقائد، و احتكمت التعاليم و المذاهب، و تفاهمت العقول و النفوس، و شارك العرب من ناحية و الفرس من ناحية أخرى فى دعم هذه الحياة الروحية الإسلامية فى مختلف صورها التى وجدت بذورها الأولى فى أرض شبه الجزيرة العربية، حيث كان تحنث النبى صلى الله عليه و سلم و زهد أصحابه، و تعبد العباد و تصوف الصوفية الذين كان كلهم من العرب، و وقع أن شاركوا المانوية و المزدكية فى زهدهم، و تأثروا بالزرادشتية فى بعض عقائدهم.

١- المؤثرات الداخلية:

لا شك أن تعاليم الإسلام بما فيها من ترغيب و ترهيب و دعوة إلى الطاعة و العبادة و تحقير لشئون الدنيا و تذكير بالآخرة: كانت الباعث الأول على النسك و الزهادة: فرضت الصلاة و هى فى أساسها خشوع و خضوع و تضرع و وقوف بين يدى الله الواحد القهار، و فرض الصوم و فيه ما فيه من الحرمان و تطهير النفس و كبح جماحها، و فرض الحج و فى مناسكه جهاد و عبادة و تجرد من الدنيا و تفرغ للتهليل و التكبير[٢٣] و قضاء لحظات فى كنف الله تعالى ثم الاعتكاف و انتم تعلمون انه من سنن الرسول و به

---

(٢٣) ص ١٢٢ فى الفلسفة الإسلامية د / ابراهيم مدكور.

ضرب من الخلوه لمناجاة الله و محاسبة النفس و القرآن الكريم بالآيات التى تدعو إلى الذكر والعبادة.

(يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه و رتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا. إن ناشئة الليل هى أشد وطأ و أقوم قيلا إن لك فى النهار سبحا طويلا و اذكر اسم ربك و تبتل إليه تبتيلا)[٣٣] (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) و فى القرآن ذم للدنيا و تحبيب فى الآخرة (فأما من طغى و أثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى و أما من خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى)[٣٤].

وحياة الرسول العظيم فيها المثل الأعلى و فيها القدوة و فيها الأسوة الحسنة و لقد وصل هذا الرسول إلى أسمى درجات العبادة- و الطاعة و التدبر و التفكر مكان قبل الرسالة يعتكف الليالى ذوات العدد فى غار حراء زاهدا و مفكرا فى هذا الكون و دقة نظامه و بديع صنعه و قوة أحكامه، وكان صلى الله علية وسلم يقوم بعد الرسالة الليل حتى تورمت قدماه وكان فى العشر الأواخر من رمضان يحيى ليله و يوقظ أهله ويشمر ساعده ولقد نهج أصحابه هذا النهج العظيم و ارجعوا بالبصر إن شئتم إلى سيرتهم تروا فيهم زاهدا ناسكا متوكلا على الله كأبى ذر الغفارى الذى لم تظل السماء و لم تقل الأرض مثله فى صدق اللهجة وكلمة الحق. و كان لا يدخر الطعام لغده و يعد ادخاره منافيا للتوكل على الله و لذلك لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم بمسيح الإسلام و تروا عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى قضى ثلاثين حولا كاملا فى عبادة الله و عرضت عليه

---

(٣٣) سورة المزمل ١-٨.

(٣٤) سورة النازعات ٣٧-٤١.

الخلافة فأباها قائلا لا أتولى الخلافة تسفك فيها قطرة من دماء المسلمين و تشاهدوا مصعب بن عمير الذى كان يلبس قبل إسلامه الديباج الثمين و الحرير الفاخر ونشأ فى حجر النعيم و الشرق وتقلب فى بحبوحة العش ورغده. ثم لبس فى الإسلام المسوح و الخشن من الثياب المرقعة و لما استشهد فى سبيل الله لم يكن له ثوب ضاف يستر جسده كله فاضطروا عند دفنه إلى أن يغطوا قدميه بالحشيش ثم لتروا عثمان بن مظعون الذى دعى فيما بعد بأنه أول ناسك فى الإسلام، و لا ننسى أن نذكركم بأبى الدرداء و ما ادراكم من أبو الدرداء، إنه القاضى العالم الذى كان يقضى نهاره صائما و ليله قائما. كذلك تجد الصوفية فى كتاب الله و أحاديث رسول الله الند الأصيل و المصدر الحقيقى لكل ما تعارف عليه القوم من الزهد و الجاهدة و المحبة و ما إلى ذلك، اقرأ معى إن شئت قول الله تعالى (و نحن اقرب إليه من حبل الوريد)[٣٥] (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا و هو رابعهم و لا خمسة إلا و هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم)[٣٦] و فى الحديث القدسى (ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم و لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به)[٣٧] و من الآيات (الله نور السموات و الأرض)[٣٨] و قوله (فأينما تولوا فثم وجه الله)[٣٩] فان الصوفية يتخذون من هاتين الآيتين دعامة يقيمون عليها مذهبهم فى

---

[٣٥] سورة ق / ١٦.

[٣٦] المجادلة / ٧.

[٣٧] القشيرى الرسالة ص ٤٥.

[٣٨] النور / ٣٥.

[٣٩] البقرة / ١١٥.

وحدة الوجود و وحدة الشهود و تجلى الله فى مخلوقاته. و هذا انحراف دون شك عن تعاليم الإسلام و أما مذهبهم فى الحب الإلهى بنوعيه- حب الله للإنسان وحب الإنسان لله، فان لهم سندا فى قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم و يحبونه، أذله على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله و لا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يأتيه من يشاء و الله واسع عليم)[٣٠].

و أما الآيات التى يستدلون بها لتأيد مذهبهم فى التوبة و الصبر و التأمل فى صنع الله و التوكل على الله و مداومة ذكر الله فهى كثيرة فى القرآن و منها قوله تعالى (و توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)، (إنما يوفى الصابرون آجرهم بغير حساب)، (فإذا عزمت فتوكل على الله)، (إن فى خلق السموات والأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما و قعودا و على جنوبهم و يتفكرون فى خلق السموات و الأرض).

و يتخذ الصوفية من قول النبى الكريم (أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك) أصلا لما ينبغى أن يأخذ به الإنسان نفسه من مجاهدة وكبح جماح على وجه تتخلى معه عن صفاتها المذمومة و تتحلى بالصفات المحمودة فهذه النصوص و غيرها تبين لنا فى وضوح وجلاء أن الحياة الروحية الإسلامية قد وجدت فى حياة النبى الكريم و فى كتاب الله و سنة رسوله مصدرها الأول الذى استمد منه الزهاد زهدهم و استقى منه

---

(٣٠) المائدة ٥٤.

الصوفية أذواقهم و وجد فيه أولئك و هؤلاء ما يؤيدون به مذاهبهم[٣١] و لم يكن هذا فقط كل ما تأثر به التصوف و إنما تأثر أيضا بالمدارس الإسلامية التى قامت إلى جانبهم من فقهه و كلامية و فلسفته بل و لقد انتقلت إلى المتصوفة عدوى بعض الفرق الاسلامية فكان لهم مع أصحاب هذه الفرق صولات وجولات وكان لهم آراء شاركوا فيها فى معالجة بعض المشاكل الكلامية مثل وجود الله و رؤيته و جلاله و وحدانيته و إن كانت طريقتهم فى هذه الأبحاث تختلف عن طريقة علماء الكلام فيها و لقد بين بن خلدون بعض ما تأثر به الصوفية من غيرهم من الفرق.

فبعد أن نقل ابن خلدون رأى ابن سينا فى تعاقب الأقطار كتعاقب البناء عند الشيعة قال (حتى انهم- المتصوفة- لما اسندوا لباس خرقة الصوف فيجعلوه أصلا لطريقتهم رفعوه إلى علي رضي الله عنه و هو من هذا المعنى- أي تقاليد الشيعة- و إلا فعلي رضى الله عنه لم يختص من بين أصحابه بتحليه أو طريقة ثم قال:-

إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين بالكشف و فيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثيرون إلى الحلول الواحدة و ملئوا الصحف من مثل ابن العربى و ابن الفارض.

وقد خلطوا الإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول و الهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم. فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر و اختلط كلامهم و تشابهت عقائدهم و ظهرت فى كلام المتصوفة

(٣١) ص ٣٠-٣١ الحياة الروحية فى الإسلام د / محمد مصطفى حلمى.

القطب و معناه رأس العارفين. يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان[٣٣].

ويتبين من هذا أن المتصوفة اقتبسوا نظام الأقطاب عن الشيعة و تأثروا بمذهب الإسماعيلية و اخذوا مذهب الحلول عنهم.

تعقيب:

لا أريد أن اترك هذا المجال دون أن اهمس بكلمة فى أذان هؤلاؤ اللذين يرجعون كل شيء إسلامى إلى مصدر أجنبى أو إلى مذهب دخيل على الإسلام سواء أكان هؤلاء من المستشرقين أو من المسلمين أو من غير هؤلاء وهؤلاء جميعا، لماذا يحلو لكم أن- تذهبوا بالتصوف هذا المذهب و تصلوا روافده ببحار أجنبية؟ فإذا قال الصوفية بالحب الإلهى قلتم إن هذا من آثار الأفلاطونية؟ فهل خلا كتاب المسلمين المقدس من هذا الحب؟ ألم تقرءوا فيه (و الذين آمنوا أشد حبا لله) فلماذا نرجع المصدر الأجنبى عن المصدر الاسلامى إذن؟

إذا كنا نتابع المستشرقين فى ذلك فان المستشرقين للآن كما يقول الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود- بحق- و هو بصدد الحديث فى هذا المجال و انهم لم يتفقوا على رأى: يقول و يأخذ المستشرقون بعضهم فى مناقشة بعض و هدم بعض البعض بل إن- الشخص الواحد منهم يغير رأيه، فيختلف باختلاف فترات حياته فالمستشرق (ثولك) مثلا يذهب فى أول حياته إلى أن التصوف الاسلامى إنما هو مأخوذ عن أصل مجوس، ثم

---

[٣٣] ص ٣٩٢-٣٩٤ مقدمة ابن خلدون.

يعدل بعد ذلك إلى الطريق المقابل و يرى أنالتصوف و كل ما فيه من الأقوال المتطرفة يمكن الرجوع به إلى تعاليم الرسول صلى الله عليه و سلم وصيته[٣٣].

ويقول الدكتور (أبو العلا عفيفى) —بحق– و لما بدأت حركة طبع الكتب في مصر و الهند و غيرها فى النصف الثانى من القرن التاسع و بدأ يتدفق سيلها من مطبعة بولاق الأميرية خاصة تغير مجرى البحث العلمى لا فى التصوف وحده، بل فى جميع فروع الدراسات–الاسلامية،

ولقد حدث لنيكلسون مثل ما حدث إلى (ثولك) من قبل فبعد أن رأى أن التصوف الإسلامى وليد لاتحاد الفلسفة (الأفلاطونية الحديثة) و الديانات المسيحية و المذهب الغنوصى) يعود ينكلسون فيبين (أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول، فالحق أننا نلحظ منذ ظهور الإسلام أن الأنظار التى اختص بها متصوفة المسلمين أنشأت فى قلب الجماعة الإسلامية فى أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن و الحديث و تقرئهما، و تأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث و ما حل بالأفراد من نوازل) ————————

---

(٣٣) ص ٢٣٦–٢٣٧ ابحاث فى التصوف مع المنقذ من الضلال د / عبد الحليم محمود.

و يتابع الاستاذ ماسينون شرح فكرة نيكلسون فيقول (على إنه إذا كانت مادة التصوف إسلامية عربية خالصة فما لا تخلو من فائدة أن تتعرف على الحسنات الأجنبية التى أدخلت عليه و نمت فى كنفه[٣٤].

إننا لو سرنا فى هذا التيار و هو إرجاع كل شىء إلى منابع أجنبية لأنها تأثرت بها فسوف نجد غدا من يرجع تفاسير القرآن الكريم إلى نشأة غير إسلامية بحجة أن بها بعض الإسرائيليات أو الآراء التى لا تتفق والعقلية الاسلامية و لقد تعصب البعض ذات يوم فاخرج كثيرا من رجال المعتزلة عن حظيرة الإسلام لأنهم درسوا الثقافة اليونانية علما بأن هؤلاء الرجال كانوا من اكثر الناس دفاعا عن الإسلام و عقيدته.

و لذلك فإننا نرى كما يرى غيرنا من الباحثين أن التصوف ظاهرة إسلامية نبتت فى جو الإسلام و بيئته و تأثرت أساسا- و قبل كل شىء- بفعل النبى صلى الله عليه و سلم و أصحابه و اعتمدت على ما جاء فى الكتاب و السنة من حكمة و موعظة و شاركت المدارس الاسلامية الكبرى فى بعض ما عرضت من مشاكل و لكنها كالظواهر الاسلامية الأخرى أم تسلم مما سرى إلى العالم العربى من عوامل أجنبية[٣٥] يقول صاحب كتاب (الحياة الروحية الإسلامية[٣٦] ، نشأت الحياة الروحية أول ما نشأت فى الإسلام من التقشف و الورع و التعبد والزهد و التقوى وغير ذلك من مظاهر

---

[٣٤] ص ٢٣٨ المصدر السابق.

[٣٥] فى الفلسفة الاسلامية ج ٢ د / ابراهيم مدكور ص ١٣٤.

[٣٦] دكتور محمد مصطفى حلمى ص ٧ .

الانصراف عن الدنيا و الإقبال على الدين مما كان عاما شائعا بين المسلمين في حياتهم الأولى و هي هذه الحياة التي كان فيها النبي و أصحابه مثلا رفيعا يهتدي به المسلمين في القول- و العمل و ها هو ماسينيون يقرر وبجانبه مرجليوث (إن في القرآن البذرور الحقيقية للتصوف، وهذه البذور كفيلة بتنميته في استقلال عن أي غذاء أجنبي)...

و هذا حق لا شك فيه فالقرآن الكريم قد أعان الصوفية المتكلمين و الفقهاء على نصرة آرائهم ذلكم لأنه كتاب هداية في العالم الإسلامي و قاموس للنحاة و اللغويين و مثار فلسفة للباحثين و المفكرين و ذكر يتقرب به المبتهلون و المتضرعون و قانون يرجع إليه المشرعون و عقيدة يحتج بها المتكلمون، و كثيرا ما حاول أصحاب الآراء الجديدة- و النظريات الحديثة الاحتجاج به و الاعتماد عليه، بل إن هؤلاء أحوج إلى نصرته من غيرهم فإن آية منه قد تقرب آراءهم إلى من حولهم و تكسب نظرياتهم سلطانا دينيا و صفات شرعية فالمتصوفة إذن- لا فرق بين متطرفيهم و معتدليهم أفادوا من القرآن بقدر ما أفاد غيرهم من الباحثين فمصطلحات الصوفية فضلا عن نظرياتهم يرجع إلى اصل في كتاب الله و غني عن البيان أن حديث المعراج و قصة يوسف كانا أساسا لنظريتين هامتين من النظريات الصوفية و هما الجذب و الحب و العلم اللدني الذي يتباهى به أهل الكشف و الواصلون، صورة مأخوذة عن الخضر عليه السلام الذي قال الله في شأنه (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)[٣٧].

---

[٣٧] ص ٦٣-٦٤ في الفلسفة الاسلامية: د / ابراهيم مدكور.

ويذكر الأسنرايني صاحب كتاب (التبصير فى الدين) ما يمتاز به آهل السنة عن غيرهم – أن سادس ما يمتازون به علم التصوف و الإشارات و ما لهم فيها من الدقائق و الحقائق لم يكن قط لأحد من آهل البدعة[٣٨] فيه خطر بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة و الحلاوة و السكينة و الطمأنينة.

(٣٨) يقصد: الخوارج و الروافض و ما إلى ذلك.

التصوف و الزهد

نشوء الزهد:

قال ابن خلدون فى مقدمته الصوفية من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة. و اصلها العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدنيا و الزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة و مال و جاه و الانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة و قد كان ذلك فاشيا فى الصحابة و السلف و لما عم الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى و ما بعده و جنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص- المقبلون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة و هذا دون شك خلاصة ما نريد أن نقوله، فان الزهد خط كان شائعا بين العرب حتى فى جاهليتهم و لكنه نما و ازدهر فى وقت النبى و بعده مع أن-النبى صلى الله عليه و سلم لم يأمر بالانقطاع كلية عن الدنيا حتى إن لفظة زهد لم ترد غير مرة واحدة فى القرآن الكريم (و كانوا فيه من الزاهدين) و فى قول الرسول (ازهد فى الدنيا بحبك الله) و يعتقد نكلسون[٣٩] إن المسيحية كانت ذات تأثير شديد فى نشوء الزهد قبل الإسلام و بعده مستدلا بشواهد من الآداب الجاهلية حتى انه فسر نشوء جماعة الحنفاء أمثال ورقة بن نوفل و اضرابه إلى تأثير رهبان النصارى و نساكهم .

---

[٣٩] انظر ص ٤٢ و ما بعدها من كتاب فى التصوف الاسلامى و تاريخه لنكلسون ترجمة دكتور أبو العلا عفيفي.

و قد تكون المسيحية من العوامل الفعالة في نشوء الزهد الجاهلي فقد كان بعض الحنفاء نصارى مثل عثمان بن الحويرث[٤٠] و لكننا مع ذلك نستبعد أن تكون اظهر و أقوى من الإسلام في تأثيرها بعد مبعث النبي صلى الله عليه و سلم فهو و أصحابه و خلفاؤه كانوا قدوة الزاهدين العابدين و الشواهد على ذلك اكثر من أن تحصى و لا حاجة بنا لذكر شيء منها الأن.

و لقد كانت غاية المسلمين في المقبلين على الدين، المعنيين بشئون القلب هي مجرد الزهد في متاع الدنيا وجاهها ابتغاء الظفر برضوان الله. فإذا بهذا الزهد يصبح وسيلة من الوسائل التي يستعان بها على تحقيق غاية أخرى اعز منه و أمتع و أروع منه و أمتع ألا و هي مطالعة وجه الله و مشاهدة جماله الأولى، ثم أصبحت هذه الغاية شيئا آخر بعد ذلك لا يضلع فيه الإنسان بالمطالعة و لا يقف فيه عند حد الرياضة و المجاهدة و إنما هو يتجاوز هذا كله إلى الغاية القصوى و الغرض الأسمى الذي إذا حققه الإنسان فقد وصل إلى مقام الغناء عن نفسه و الاتحاد بربه و هنا تتحول الحياة الروحية من مجرد رياضة للنفس و مجاهدة لدواعي الحس إلى نظام روحي أو فلسفة دينية قوامها مذهب روحي[٤١].

---

[٤٠] تاريخ ابن هشام ص ٧٦.

[٤١] ص ٨ للحياة الروحية في الاسلام د / محمد مصطفى حلمي.

الفرق بين الزهد و التصوف:

إذا وضعنا نصب أعيننا الفكرة القائلة بنشوء التصوف من الزهد أيقننا أن هذا الفرق ضئيل غير واضح منذ البداية و لكن سرعان ما اخذ في الظهور و ذلك عندما تطورت الصوفية و دخلت فيها العناصر الأجنبية و لا يفوت الباحث من هذه الفروق ما يأتي:

أولا: فرق في الغاية: فالزهد الذى ينصرف عن الملذات- الدنيوية و ينكر نفسه و شهواته و يتحمل مرارة الجوع و العطش لا يفعل ذلك إلا طمعا في الآخرة و نعيم الجنة.

- و أما الصوفي: فلا يرجو من ذلك شيئا و إنما همه الوقت الحاضر و هدفه معرفة الله و الاتصال به و لقد سئلت رابعة العدوية أتحبين الله؟ قالت نعم. أتلعنين الشيطان؟ فقالت إن حبى لله لا يترك متسعا من الوقت لألعنه[٤٢].

ثانيا: فرق في الفكرة: فالزاهد دوما محوط بجلال الله وجبروته و بطشه و عقابه أما الصوفي فناعم البال في رحمة الله وكرمه و فوق كل شيء في محبته.

ثالثا: فرق عام و هو أن الزهد عام في جميع الأقطار و الأعصار و في كل دين و جيل أما الصوفية فنزعة خاصة و لدتها عومل شتى في ظروف خاصة تحت راية الإسلام.

عوامل نشوء الزهد:

لقد نما الزهد و ترعرع اثر الحروب الأهلية و مقتل عثمان خليفة المسلمين وهو يرتل كتاب الله تعالى مما أدمى قلوب المتدينين و النساك أضف إلى

(٤٢) التصوف الاسلامي العربي عبد الطيف الطباوي.

ذلك اشتداد الغطرسة العسكرية الأموية و تطاحن الأحزاب و تضارب الفرق و حياة الخلاعة والمجون التى كان يحياها كثير من الأثرياء و الأغنياء. كل ذلك و غيره مثل الرعب الذى القاه القرآن فى القلوب من هول يوم القيامة و عذاب النار دفع الكثيرين على اعتزال هذه الحياة و قد أيقنوا أن البذخ و الترف بدعة وتحققوا أن الدائم الذى لا يفنى و الحقيقة التى لا تبلى هى الاتصال بالله.

و كان الحسن البصرى طيلة عهد بنى أمية اشهر الرجال فى مضمار الزهد و التزوف عن الدنيا و لذا فإنه يصح اعتباره مؤسسا للمذهب البصرى فى الزهد و التصوف[٤٣].

<u>أقسام الزهد:</u>

للزهد عدة أقسام نضعها بين يديكم فى إيجاز شديد و ذلك تتميما للفائدة و قصدا للعلم و التعليم و من هذه الأقسام:-

أ-زهد اضطرارى و ذلك مثل زهد من نشأ فى صحراء قاحلة.

ب-زهد عن عجز و ذلك مثل زهد أبى النواس فانه لم يزهد إلا بعد أن ضعفت قواه و عجز جسمه عن شرب الخمر و النساء.

ج-زهد صناعى و ذلك مثل زهد أبى العتاهية فهو يطلب بزهده هذا الشهرة عند الرشيد.

د-زهد فلسفى: و ذلك مثل زهد أبى العلاء المعرى فهو قد زهد فعلا و لكن زهده قام على فكرة معينة و هى أن العدم خير من

---

(٤٣) ص ١٢٠ ج ١ قوت القلوب لبى طالب المكى طبع مصر ١٣١٠ هجرى.

الوجود و انه كان من الواجب ألا يوجد الإنسان و ألا نحب الدنيا و قد بنى زهده على التشاؤم من الوجود.

هـ-الزهد الحقيقى: فهو اختيارى له وسائله المعينة و هى ترويض الجسد برياضات معينة تنتهى بصاحبها إلى الإيمان و اليقين و ذلك مثل زهد إبراهيم بن ادهم حيث قد ترك الإمارة و لجأ إلى ساحة الزهد و على ذلك فبداية الزهد اختيارية و وسيلته مجاهدات و غايته الإيمان و اليقين.

الفرق بين الرهبانية و الزهد:

أ-الزاهد يتزوج بخلاف الراهب.

ب-الزاهد يعامل الجسم معاملة معتدلة دون إفراط أو إرهاق أما الراهب فانه ينظر إلى الجسم على انه وعاء الخطيئة و لصفاء الروح لابد فى رأيه من أتعاب الجسد و تعذيبه.

ج-الزهد يعمل والراهب لا يعمل.

و من المعروف أن الإسلام يحترم الجسد و يكرمه و يحافظ عليه لا كما يفعل الهنود حيث يقف بعضهم على رأسه ثم يفكر فى المطلق أو يلسع جسده بالنار أو ينام على مسامير و ذلك بما يسمى عندهم (اليوجا).

نظرة الصوفية إلى الزهد:

و نحب أن نختم حديثنا عن الزهد بإلقاء بعض الأضواء على نظرة الصوفية إلى الزهد و من أى الأنواع يكون؟

و الحقيقة إن هذا من الأبحاث الكبيرة التي لا نستطيع في هذا المختصر أن نفرد لها بابا واسعا و لكن يكفي أن نقول:
ليس الزهد في الدنيا عند الصوفية هو فقر الجيوب بل الزهد عندهم ألا تفرح بموجود فيها و لا تحزن علي مفقود منها عملا بقول الله تبارك و تعالي (لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم) أو إن الزهد عندهم كما قالوا:
ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدرك و هي في قلبك، فقد يكون الرجل فقيرا متطلعا للأموال يجمعها لشهواته، فهو ليس بزاهد، و قد يملك المال الوفير و يكون زاهدا بقلبه و يضربون المثل بخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز حيث آلت إليه الخلافة و كانت أموال المشارق و المغارب في قبضته و رضي بعيشة الكفاف طالبا لمرضاة الله، مع انه بدأ حياته أميرا و عاش في نشأته مترفا لكنه حين ولي الخلافة تقشف و زهد إيثارا للآخرة على الأولى[٤٤].

---

[٤٤] ص ١٨ منهاج الصوفية الاستاذ حسن كامل الملطاوي.

تطور التصوف و خصائصه

إن التصوف فلسفة دينية إسلامية نشأت عن الزهد و تطرقت إليها بعض المبادئ الأجنبية قد فعتها إلى التغير و التحول (سنة الله في خلقه و لن تجد لسنة الله تبديلا).

و في القرن الثاني الهجري لم يكن للمتصوفة رابطة منظمة تجمعهم أو مكان يزاولون فيه اذكارهم، و انما كانوا يسيرون من مكان إلى آخر يرددون الذكر و يرتلون القرآن و همهم الانصراف عن الدنيا تقربا من الله تعالى، و لم تنشأ عندهم- في هذه الفترة- نظرية شمول الألوهية و ملخصها أن الله تعالى يحل في جميع القوى و النواميس الطبيعية و هي هو و من المعروف أن الحلاج[٤٥] أول من ادخلها عند الصوفية و ساعد على رواجها اعتقاد الشيعة بالحلول. و هذا انحراف من الحلاج.

و يمثل حلقة الاتصال بين فكرة الاتصال بالله و التأمل فيه و بين الشمول أبو يزيد البسطامي الفارسي المتوفى سنة ٢٣٥ م وهو صاحب نظرية الفناء.

فالصوفية في هذا الدور إسلامية محضة لم تدخل فيها العناصر الهدامة، و كانت غايتهم من التصوف (الاتصال) لا (الخلاص) أو- بعبارة أخرى تقول أن التصوف في هذه الفترة يجتاز المرحلة بين الزهد و المعرفة كما كان الحب طابعا للزهد الذي عرف عند رابعة العدوية .

---

[٤٥] لقد اعدم الحلاج لإدعائه أن الله حال في جسده.

فإذا كان الحسن البصرى إمام مدرسة البصرة الصوفية قد طبع الحياة الروحية للقوم بطابع الحزن و الخوف مع الزهد حتى قال الشعرانى عنه (كان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له)[٤٦].
وكان من أقواله فى تبرير هذا الحزن الذى يعيش فى رحابه (يحق لمن يعلم أن الموت مورده و أن الساعة موعده و أن القيام بين يدى الله تعالى مشهده أن يطول حزنه)[٤٧].

نقول إذا كان الحسن البصرى قام بهذا فى أوائل القرن الثانى الهجرى — فإن رابعة العدوية قد رفعت راية الحب الإلهى فى أواخر هذا القرن مما كان له أثار قوية فى توجيه الحياة الروحية وجهة جديده فلم يصدر زهد رابعة عن الخوف أو الحزن بل كان مصدر هذا هو حب الله تعالى لما يخصها به من نعمه و آلائه و حبه لذاته العلية و هذا هو الحب الذى يتخذ فيه من الله موضوعا يشتاق إليه الإنسان، و يقبل عليه لا خوف من و لا طمعا فى جنته بل ابتغاء لوجه و إجتلاء بطلعته، وعن هذا الحب يقول الإمام مصطفى عبد الرازق.

وعندما كان التصوف فى سذاجته لعهد رابعة لم يكن الحديث فى أمر المحبة الصوفية طريقا معبدا و قد تكون رابعة العدوية أول من هتف فى رياض الصوفية بنغمات الحب شعرا و نثرا و جدير بمولاة آل عتيك التى

---

(٤٦) الطبقات الكبرى ج١ص ٣١-٣٢.
(٤٧) حلية الأولياء ج٢ص ١٣٢-١٣٣.

كانت من فضلاء عصرها و أذكاهم فطره و أسماهم نفسا و أشدهم عزوفا عن الدنيا و زخرفها — أن يكون انقطاعها إلى الله قد وجهه نفسها وجهه حب الهي فغنت بأناشيده[٤٨].

أجل لقد ملك —الحب الإلهي عواطف رابعة كلها فكانت تهتف من أعماق فؤادها.

أحبك حبين حب الهـــوى	وحبا لأنك أهـــل لذاكـــا
فأما الذى هو حب الهـــوى	فشـغلى بذكرك عمن سواكا
و أمـا الذى أنت أهـــل له	فكشفــك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا و ذاكا

و يعقب الإمام الغزالى على هذه الأبيات بقوله :

(و لعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها و إنعامه عليها بحظوظ العاجله، و بحبه لما هو أهل له الحب لجماله و جلاله الذى انكشف لها و هو أعلى الحبين و أقواهما و لذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى. (أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر)[٤٩].

---

(٤٨) ص٢٩٦-٢٩٧ دائرة المعارف الإسلامية ج٥ مادة تصوف.

(٤٩) أبو حامد الغزالى ج٤ص٢٦٦-٢٦٧ أحياء علوم.

التصوف في القرنين الثالث و الرابع:

لقد تطور التصوف مع الزمن و اتسم في هذين القرنين بعدة خصائص كان من أشهرها.

١- الأخلاق: يقول الإمام ابن القيم في مدارج السالكين و اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق ويقال أيضا (إن هذا العلم مبني على الإرادة فهي أساسه و مجمع بنائه و هو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة فهو أساسه و مجمع بنائه و هو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة و هي حركة القلب و لهذا سمي علم الباطن كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح و لهذا سمي علم الظاهر، و يقول الكناني (التصوف هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء).

٢- المحبة الإلهية و ذلك استمرار لطريق رابعة العدوية و قد اصطنع الجنيد لفظة المحبة و قال فيها كلاما يعده صوفية وقته خير ما قيل في تحديدها و كذلك استعمل ذو النون المصري هذه اللفظة في غير تردد و قد ظل التصوف مطبوعا بطابع الحب طوال القرن الثالث و الرابع ولو قرأنا كتب الصوفية مثل قوت القلوب، الرسالة القشيرية- إحياء علوم الدين لوقفنا من خلالها على مقدار عناية المؤلفين الصوفيين بإثبات أقوال من سبقهم من صوفية القرنين الثالث و الرابع في المحبة الإلهية و كلها بمثابة المواد الأولية للمذاهب التي اسسها المتأخرون[٥٠].

---

(٥٠) ص ١٠٢ الحياة الروحية في الإسلام.

تصوف القرن الخامس:

إن التصوف الذى كان فى القرنين الأولين طريقا من طرق العبادة، يتسم بالزهد أو النسك، و كان فى القرنين الثالث و الرابع علما يتناول الأحكام الشرعية فى العبادات من ناحية آثارها فى قلوب المتعبدين، قد اصبح فى القرن الخامس الهجرى طريقا ذوقيا و منهجا روحيا يصل إلى المعرفة و يستعان به على تحقيق السعادة.

و بعبارة أخرى إذا كان التصوف قد مر بمرحلة العبادة — و الإعراض عن الدنيا و زخرفها و زينتها و الزهد فى شهواتها و أهوائها ثم مر بمرحلة العمل الباطنى أو المراقبة الداخلية بتزكية الأخلاق و تطهير القلوب و تصفية الروح و محاربة النفس و التجمل بالأخلاق الزكية و الصفات النبيلة ثم كذلك مر بمرحلة الرياضة و المجاهدة التى تسمو بها النفس و تصفو صفاء ربانيا.

فانه فى المرحلة الأخيرة يتسم بالعمل على وصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق و تلك المرحلة كما يقول الصوفية لا تكتب و لا توصف لأنها خارجة عن نطاق التصور العقلى والتخيل الإنسانى فهناك يشاهد المجد بعين القلب ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر[٥١] و يواصل التصوف تطوره من المجاهدات و الأحوال و المقامات إلى مرحلة الكشف و مدار الكلام فيه على الحقيقة المدركة من عالم الغيب كالصفات الربانية و العرش و الكرسى و الملائكة و الوحى و النبوة و الروح و هذا

---

(٥١) ص ٥٤ من اعلام التصوف الاسلامى ج١ طه عبد الباقى سرور.

الكشف و هذا الكشف يحصل للسالكين نتيجة لمجاهداتهم و خلو...
ذكرهم ثم مرحلة الكرامة التى عن طريقها يتصرف بهمته و قوى نفسه فى الموجودات السفلية بحيث تصير طوع إرادته على وجه يعجز عليه غيره و أخيرا مرحلة الشحطات و هى ألفاظ و عبارات موهمة الظاهر صدرت عن كثير من أئمة الموفية و هي لما يستشكل من ظواهرها قد جعلت الناس فيها بين منكر و مستحسن و متأول و من هذا القبيل قول أبى يزيد البسطامى (سبحانى ما اعظم شأنى) و مثل قول الحلاج (أنا الحق).

شأن الصوفية فى الجماعة الإسلامية:

لم يكن المتصوفة الأول يتوقعون أن يصطدموا بأولى الأمر فى الجماعة الإسلامية. فهم إذا كانوا قد جنحوا إلى العزلة و آثروا الفقر و الزهد فذلك يتقرأوا القرآن بالتماس القربى من الله فى الصلاة و الواقع أن منشأ النزوع إلى التصوف هو ثورة الضمير على ما يصيب الناس من مظاليم لا تقتصر على ما يصدر عن الآخرين و إنما تنصب أولا و قبل كل شىء على ظلم الإنسان نفسه. و تقترن هذه الثورة برغبة فى الكشف عن الله بأى وسيلة يقويها تصفية القلب من كل شاغل، و هذا الذى نلمسه فى سيرة الحسن البصرى و فى عبره و عظاته، قد تجلى فى السيرتين الرائعتين اللتين كتبهما المتصوفن الكبيران المحاسبى (الصايا) و الغزالى (المنقد من الضلال)- يترجمان فيهما عن نفسهما.

على أن ذلك لم يكن قد هدد بعد النظام القائم بالغا ما بلغ جوز الحاكم، و لكن الفقهاء المتكلمين أسخطهم أن يروا أناسا يتحدثون عن نشدان الضمير و يحتكمون إلى قضائه الباطن فى حين أن شريعة القرآن تحاسب

على الأعمال الظاهرة و تعاقب الناس على آثامهم و لا حيلة لها مع النفاق في الدين. و لذلك حاولوا أن يبينوا أن الحياة الصوفية لا محالة مفضية لهم إلى الزيغ، لأنهم يقولون أن النية مقدمة على العمل و أن الطاعة خير من العبادة[٥٢].

وكان الخوارج أول الفرق الاسلامية التى أظهرت عداوتها للصوفية و جاءت الإمامية (الزيدية و الإثنا عشرية و الغلاة) بعد ذلك فأنكروا كل نزوع إلى التصوف لأنه يستحدث بين المؤمنين ضربا من الحياة الشاذة- فى رأيهم- تتمثل فى طلب الرضا من غير توسل بالأئمة الإثنى عشر و طلب أمامه تناقض ما جروا عليه من تقية. و كذلك نظر الفقهاء إلى الصوفية نظرة سخط و تكفير لهم و تجريح- لمذاهبهم فابن حنبل يأخذ على التصوف انه يغذى التفكير و يصرف أصحابه عن العبادة و يحملهم على طلب الخلة مع الله فيستنجون اغفال الفرائض و خشيش و أبو زرعة و هما ممن تتلمذ لابن حنبل يجعلان المتصوفة طائفة من الزنادقة(الروحانية).

أما المعتزلة و الظاهرية فيستنكرون العشق، لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه، و يقوم من الناحية العملية على الملامة و الحلول.

أما أهل السنة فلم يقولا بمروق المعتدلين من المتصوفة بل لقد دأب هؤلاء على الاهتداء فى معاملاتهم وعبادتهم بالرسائل المشهورة التى ألفها ابن أبى الدنيا المتوفى عام ١٨١ هجرى وكتاب (قوت القلوب)

---

[٥٢] دائرة المعارف الاسلامية مادة تصوف.

لأبي طالب المكى المتوفى عام ٣٨٦ هجري و كتاب الغزالى الفذ (إحياء علوم الدين) بصفة خاصة و كان فقهاؤهم -الذين اشتدوا فى الحط من شأن المتصوفة أمثال ابن الجورى و ابن تيميه و ابن القيم- يقدرون الغزالى و يعدونه حجة فى مسائل الأخلاق.

و لقد صب فقهاء أهل السنة المتأخرون جام غضبهم مريدى ابن العربى لقولهم بالوحدة، و لم يكن لغضبهم هذا أثر كبير، و مع هذا فقد شرح صاحب مذهب الوهابية- على مبلغ خصومته للمتصوفة وصية المتصوف شقيق إلى حاتم الأصم[٥٣].

---

[٥٣] ص ١٨-٣٠ الإسلام و التصوف مصطفى عبد الرازق و ماسينيون سنة ١٩٧٩ و ص ١١٣ الحياة الروحية فى الإسلام.

"أثر التصوف في الفكر الإنساني"

لا شك أن التصوف اثر تأثيرا كبيرا فى المعارف الاسلامية فهو بنظراته و فلسفته الخاصة و نظريته المعنية نحو الكون و الإنسان و الصلة بين العبد و ربه و ما إلى ذلك و بما أثار حوله من معارك و خصومات و مجادلات ضخمة كون ثروة عظيمة لها آفاقها و لها أعماقها و لها أبعادها وكانت هذه الثروة نبع أصيل لرواد العلوم و عشاق المعارف وكان الفضل الأول فى تحطيم الفلسفة المادية فى الشرق إنما تعود أول ما تعود إلى التصوف الذى استطاع أن يقف في قوة و صلابة في وجه التيارات الإلحادية و المذاهب المارقه التى غمرت البيئة الإسلامية منذ أن ترك العرب صحراءهم و اطلوا على شعوب أخرى لها ثقافات و آراء و حضارات تختلف-بصورة أو بأخرى-مع ثقافات الإسلام وحضارته.

و لقد كان للتصوف فضل كبير فى انتشار الإسلام و وصوله لأمم و شعوب لم تصل إليه جنود الإسلام، فرجال التصوف هم الذين حببوا الإسلام إلى القلوب بسيرتهم الحميدة و أخلاقهم الكريمة وعشرتهم الطيبة وحياتهم البسيطة التى تمثل روح الإسلام فى يسره وسهولته يقول دوار روس: فى كتاب فلسفة الدين الاسلامى إن ظهور الفرق الصوفية التى انتشرت فى الإسلام بشهادة بوجود الشوق فى التعاليم الاسلامية إلى اتصال وثيق بالله رحيم رحمن يفيض بالحب. و هذا قول الحق فالتصوف هو الذى ملأ الجوانب الخالية من قلوب المسلمين فعنى بطريقة تعلم الناس المحبة و عرفوا الطهر والصفاء والتقاء.

إن التصوف لموسعة معارف كاملة فيها العلوم و بها الأحلاف و الفنون و الفلسفة و الفقه إليها يعود العالم فيغترف من بحره و إليه يرجع الأديب فيرشق من رحيقه و رحم الله محمد ابن يحيى الذى- استمع إلى حديث القوم فإذا به يهتف.

إن كلامهم القريب العهد من الله و إن له لصولة ليست بصولة مبطل.

و كأن الحسن البصرى قد عناهم عندما قال:

إن لله عز وجل عبادا قلوبهم محزونة و شرورهم مأمونة جوانحهم خفيفة و أنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصارا تعقب راحة طويلة: أما الليل مساقة أقدامهم تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم ربنا. و أما النهار فحكماء علماء بررة أتقياء كأنهم و ما-بالقوم من مرضى أو خولطو- و لقد خالط القوم من حبهم لربهم و ذكره الآخرة أمر عظيم[٥٤].

إنهم مع الله يسيرون فى طريق رسول الله ذلكم أنهم كما يقول صاحب كتاب عوارف المعارف.

الصوفي هو الذى يكون دائم التصفية، لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأقدار، بتصفية القلب عن شوائب النفس و يعينه علي هذه التصفية دوام أفتقارة إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينفي من الكدر، و كلما تحركت النفس و ظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه فبدوام تصفيه جميعيته و بحركة نفسه تفرقته وكدره فهو قائم بربه علي قلبه . و قائم بقلبه علي نفسه قال الله تعالى (كونوا قائمين لله شهداء بالقسط).

---

[٥٤] ص ٧٦-٧٧ ج ٢ من اعلام التصوف الاسلامى طه عبد الباقى سرور

و هذه القوامة لله علي النفس هي التحقيق بالتصوف[٥٥] فالتصوف فلسفة من فلسفات العبادة منشؤه إيثارا لله تعالي على ما سواه باعتبار أن العباد خلقوا لعبادته (و ما خلقت الجن و الأنس إلا ليعبدون).

و ليقينهم أن الآخرة، خير لهم و أبقى (و ما هذه الحياة الدنيا إلا لهو و لعب و أن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون)[٥٦]. يقول الإمام على كرم الله وجهه (عجبت لعامر دار الفناء و تارك دار البقاء) و لذلك فإنهم ينظرون إلى الدنيا نظرة استعلاء فلا يخطف بريق ذهبها قلوبهم و لا يجذب ما فيها من متع و إغراءات نفوسهم و إنما هدفهم الأسس و غايتهم القصوى فى الآخرة و مع ذلك فليس مأرب القوم من الآخرة كما يظن البعض . أن يتمتعوا بالجنة و ثمراتها، بل سواه، و قد أعدت الجنة للمتقين الذين يفوزون برضوانه و لا رضوان إلا بمعرفته فى هذه الحياة الدنيا، و لا معرفة إلا بتوحيده، و لا توحيد إلا بطاعته، و لا طاعة إلا بتقواه، و لا تقوى إلا بإيثاره تعالى على سواه، و لا إيثار إلا بمحبته تعالى، و المحبة تقتضى ألا يسكن حنين العبد و أنينه حتى يسكن مع محبوبة و يفوز برضوانه (و الذين آمنوا أشد حبا لله).

---

(٥٥) السهر وردى جـ١ ص ٢٠٨ عوارف المعارف تحقيقه د. عبد الحليم سرور.

(٥٦) العنكبوت / ٦٤ .

المقامات و الأحوال

للصوفية طريق روحى يسرون فيه على هدى من كتاب الله تعالى و على منهج رسوله "صلى الله عليه و سلم" الطريق قد جربه الصوفية فنبتت ثماره و أينعت أزهاره و جوهر هذا الطريق الصوفى هو ما تعارف عليه القوم باسم المقامات و الأحوال فما هذه المقامات و الأحوال؟.

المقامات

يقول صاحب كتاب اللمع: المقام معناه قيام العبد بين يدى الله عز و جل فيما يقام فيه من العبادات و المجاهدات و الرياضيات و الانقطاع إلى الله عز وجل. قال تعالى (ذلك لمن خاف مقامى و خاف وعيد) و قال جل جلاله (و ما منا إلا له مقام معلوم) و لقد سئل أبو بكر الواسطى عن قول النبى صلى الله عليه و سلم (الأرواح جنود مجندة) قال مجندة على قدر المقامات[٥٧].

و المقام فى الأصل المجلس ففى القرآن (أى الفرقين خير مقاما و احسن نديا) و فى شعر زهير.

و فيهم مقامات حسان وجوههم و أندية ينتابها القول و الفعل ثم يقول: أما الصوفية فالمقام عندهم مقام العبد بين يدى الله عز وجل فيما يقام فيه العبادات و الانقطاع إلى الله تباركت أسماؤه[٥٨] أما الجرجانى فى

---

[٥٧] ص ٦٥ اللمع للطوسى.

[٥٨] ص ١٤١-١٤٢ التصوف الاسلامى فى الأدب و الأخلاق ج ٣ د / زكى مبارك طبعة أولى.

تعريفاته فانه يقول و هو يتحدث عن الأحوال و المقامات (الحال عند أهل الحق: معنى يرد على القلب من غير تصنيع و لا اجتلاب و لا اكتساب من طرب أو حزن، أو قبض أو بسط أو هيبة و يزول بظهور صفات النفس فإذا دام وصار ملكا يسمى مقاما، فالأحوال مواهب و المقامات مكاسب و الأحوال تأتي من عين الجود و المقامات تحصل- ببذل المجهود)[٥٩].

أما ابن القيم فانه يرى أن الحال إذا ثبت يصير مقاما و أن المقام إذا تغير فانه يصبح حالا انه يقول (هذه الواردات و المنازل لها أسماء باعتبارها أحوالها فتكون لوامع و بوارق و لوائح عند ظهورها كما يلمع البرق و يلوح على بعد، فإذا نازلته و باشرها فهى أحوال فإذا تمكنت منه و تثبتت له من غير انتقال فهى مقامات فهى لواسع و لوائح فى أولها- و أحوال فى أواسطها و مقامات فى نهايتها فإذا كان بارقا هو بعينه الحال و الذى كان حالا فهو بعينه المقام و هذه الأسماء له و تبالة فيه)[٦٠]. و أما صاحب الرسالة القشيرية فان المقام عنده هو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الأدب، مما توصل إليه بنوع تصرف و يتحقق به بضرب تطلب و مقاساة تكلف. فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك و ما هو مشتغل بالرياضة له و شرطه أن لا يرتقى من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوفى أحكام ذلك المقام فان من لا قناعة له لا يصلح له التوكل و من لا توكل له لا يصلح له

---

(٥٩) التعريفات للجرجاني.

(٦٠) مدارج السالكين لابن القيم.

التسليم و كذلك من لا توبة له لا تصح له الانابه و من لا روع له لا يصلح له الزهد[٦١].

فالقشيرى يرى أن المقام عمل كسبى يقوم به العبد و يلتزم به و لا يتجاوز إلى مقام آخر إلا إذا استوفى شروط إقامته به.

و يقول الأستاذ (الدكتور عبد الحليم محمود):

و المقامات هى المنازل الروحية التى يمر بها السالك إلى الله فيقف فيها فترة من الزمن مجاهدا فى إطارها حتى يهيئ الله سبحانه و تعالى سلوك الطريق إلى المنزل الثانى لكى يتدرج فى السمو الروحى من شريف إلى اشرف و من سام إلى أسمى و ذلك مثلا كمنزل التوبة الذى يهيئ إلى منزل الورع و منزل الورع الذى يهيئ إلى منزل الزهد و هكذا حتى يصل الإنسان إلى منزل المحبة و إلى منزل الرضا.

و هذه المنازل لا بد لها من جهاد و تزكية و لذلك يقولون عنها إنها اجتهاد فى الطاعة و مواصلة فى التسامى فى تحقيق العبودية لله سبحانه و تعالى[٦٢].

الأحـــــــوال

و الحال كما يقول صاحب (اللمع) هو ما يحال بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الازكار و قد قال عنه الجنيد الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم،

---

(٦١) مدارج السالكين لابن القيم.

(٦٢) ص ١٨٩ أبحاث فى التصوف د / عبد الحليم محمود مع كتاب المنقذ من الضلال.

ليس الحال من طريق المجاهدات و العبادات و الرياضات كالمقامات مثل التوبة و الورع والزهد و الفقر و الصبر و الرضا و التوكل و غير ذلك و ما إلى ذلك فالأحوال مواهب و المقامات مكاسب و الأحوال تأتى من عين الجود و المقامات تحصل ببذل المجهود و صاحب المقام ممكن فى مقامه و صاحب الحال مترق عن حاله[٦٣] ذلكم أن المقامات مستقرة و الأحوال متغيرة.

و يرى القشيرى أن الحال وارد إلهى من لدن الحق ينزل — بالعبد بدون تكلف منه فالأحوال عنده ليس لها ثبات و لا دوام — لأن الله تعالى يقلب العبد فيها حسب مشيئته و هذا ما يراه الجرجانى أيضا فى قوله السابق فى إن: الحال عند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع و لا اجتلاب و اكتساب الخ.

و يقول الأستاذ (الدكتور عبد الحليم محمود):

أما الأحوال فإنها السمات الروحية التى تهب على المسالك فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة ثم تمر تاركه عطرا تتشوق الروح للعودة إلى النسمات و ذلك مثل الأنس بالله[٦٤] و يقول الإمام الغزالى لا بد لكل مقام من علم و عمل وحال، فالمقام يثمر علما و العمل يثمر حالا لأن حركات الأجسام تابعة لحركات القلوب وحركات القلوب جارية تحركات الأجسام و مما لا شك فيه إن درس المقامات و الأحوال يصور لنا فهم الصوفية للحياة الخلقية فهم يرون الإنسان بين حالين:

---

(٦٣) ص ٢٠٦ الرسالة القشيرية ج ١ تحقيق د/ عبد الحليم محمود.

(٦٤) ص ١٨٩ د/ عبد الحليم محمود ابحاث فى التصوف.

الأول حال المجاهدة، و الثانى تلقى الفيض فالشخصية الخلقية لا تنفك تجاهدا لأهواء و الشهوات و لا تزال موجهة القلب إلى النفحات الروحانية فهى في شغل موصول بمواجهة أسباب الصفاء و أثر التصوف من هذه الناحية عظيم جدا في الأخلاق فالجل المتصوف يحاسب نفسه فى كل لحظة و يتلمس مواضع الفيض فى كل لحظة "إنها تقنع الإنسان بان مصيره مرتبط بمجاهدة الأهواء و محاربة الشهوات و أن لا غنى له عن ترقب الفيض الإلهى فى جميع اللحظات و تروض الإنسان على احتقار المغانم الدنيوية و الإيمان بأن المغنم الحق هو الاتصال بالمبدع الأول[٦٥] سبحانه و تعالى و إليكم بعض المقامات.

التوبة

إن التوبة كما يرى الصوفية هى بداية طريق السالكين و أول مقام من مقامات الطالبين و المنقطعين إلى الله تعالى على حد السراج و العشرى الذى يفرق بين تاب وأناب وآب فيقول :

(التوبة بداية و الأوبة نهاية و الأنابة واسطتهما فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة و من تاب طمعا فى التواب فهو صاحب إنابة و من تاب مراعاة للأمر للرغبة فى الثواب أو رهبة فى العقاب فهو صاحب أوبة و يدعم القشيرى رأيه هذا بورود اللفظة فى الاستعمال القرآنى فيقول (التوبة صفه المؤمنين) قال تعالى (و توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون) و الإنابة صفة الأولياء و المقربين قال تعالى "وجاء بقلب متين و الأوبة صفه الأنبياء و المرسلين" و قال تعالى (نعم العبد أنه أواب)

(٦٥) أنظر ص ١٤٢ و ما بعدها ج٢ التصوف الاسلامى د/ زكى مبارك.

إذا كانت التوبة هي بداية الطريق عند البعض فان للهروى رأيا أخر أنه يجعل (اليقظة بداية الأبواب فهي قومة لله من سنة الغفلة و نهوض عن ورطه الفترة و هي أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه[٦٦] ذلك: لأنه إذا- كانت التوبة فى لغة العرب الرجوع، أى الرجوع عن المذموم فى الشرع فان الرجوع لا يكون إلا بعد تيقظ لسوء ما وصل إليه الإنسان و أدراك لضرورة التغير و إحساس بالحاجة إلى هذا التغير و بمقدار ما تشتد الحاجة تكون سرعة الرجوع واللهفة علي النجاة، و لكن القشيرى يدخل التيقظ ضمن محتوى التوبة و فى بداية مراحلها فهو يرى أن "أول التوبة انتباه القلب عن رقدة الغفلة و رؤية العبد ما هو عليه من سوء الحال" أما التوبة فبدايتها الحقيقة الندم وترك الزلة فى الحال والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصى و لا شك ان التوبة تطهر الإنسان من دنس الخطاب و تغسله من الذنوب و تبعد عنه الآثام و ها هو انس ابن مالك رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) و إذا احب الله عبدا لم يضره ذنب ثم تلا (إن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين) قيل يا رسول الله و ما علامة التوبة؟ قال الندامة؟.

و يصف السهر وردى أول مراحل التوبة بأنها (هيجان في القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة فذا ينقذ ابصر الصواب من الخطأ). وللتوبة قواطع ينبغى مقاومتها و الانتصار عليها و اشد هذه القواطع خطرا علي التائب الشيطان و من الناس من يعاديه بالقول و لكن يوافقه في

---

[٦٦] منازل السئرين للرهوى ص ٤.

الفعل، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالرب و مع ذلك فالشيطان لا يفتقر عن عداوتك و من القواطع أيضا إخوان السوء الذين يحملونه على رد قصده للتوبة و يشوشون عليه صحة هذا العزم[٦٧] و يجب أن يستوحش من إخوان السوء و لا يصاحبهم.

و أشد ما يصيب التائب في بدايته أن يجتابه اليأس إذا حدث أن عاد إلى المعصية ذات مرة و لكن القشيرى يفتح الأمل أمامه بكل ما يملك من تسامح صوفى أصيل و يذكره أن هذا الأمر محتمل الوقوع لأن النفس البشرية نزاعة إلى ماضيها، و ليس هناك بأس فى أن- يجدد الإنسان عزيمته و يقوى أمله و يعاود التوبة من جديد (فينبغى ألا يقط المرء عن حمل إرادته على تجديد التوبة مرة بعد مرة و لا ينبغى له قطع الرجاء و لا بد أن تكون التوبة نصوحا) و هى كما يرى صاحب كتاب قوت القلوب "ندم بالقلب و استغفار باللسان و ترك بالجوارح و إضمار أن لا يعود التائب إلى الذنب"[٦٨].

و من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى بحلاوة الطاعة و لا يصح للتائب توبة إلا بأكل الحلال و لا يقدر على الحلال حتى يؤدى حق الله تعالى فى الخلق وحق الله تعالى فى نفسه و لا يصح له هذا حتى يبرأ من حركته و سكونه إلا بالله وحتى لا يأمن الاستدراج

---

(٦٧) ص ٢٧٢-٢٧٨ القشيرى فى رسالته ج١.

(٦٨) أبو طالب المكى ج ٢ ص ٦٥ قوت القلوب.

الصالحات[٦٩] و جمهور البشر محتاج إلى فقلما ينجون فى حياتهم من العثار و التخليط و ما اكثر الذين يردهم طيش الغرائز و ضعف الرأى و قلة التجربة و اضطراب اليقين، و إذا استثنينا الأنبياء فاغلب بني آدم تعرضوا لخطايا سيئة و أخطار لا حد لها.

أما الأنبياء فانهم قيادات روحية و فكرية اصطفاها الله من النشأة الأولى و تخيرها من معادن أرقى فهم ليسوا على غرارنا و إن كانوا من تراب الأرض مثلنا و قد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (فاستقم كما أمرت و من تاب معك)[٧٠] أى أن الذين تبعوه قد جاءوا إليه تائبين.

و التوبة فى نظر الإسلام — جهد لا بد أن يقوم كل إنسان به و لن يغنى عنك أحد أبدا فى أدائه فالخطأ فى حق الله تعالى لا يداويه بالاعتذار المخطئ نفسه، فلو اعتذر عنه أهل الأرض جميعا و فى مقدمتهم النبيين و بقى هو على عوج نفسه فلن يقبل منه إعتذاره و لن ينفعه استغفاره فلا بد أن يحثوا المذنب فى ساحة الرحمن ثم يهتف من أعماق قلبه. "رب اغفر و ارحم و أنت خير الرحمين" ليؤمل — بعد — فى مغفرة الله ورحمته[٧١]. و الحقيقة إن الله تعالى قد فتح باب التوبة على مصراعيه، تفضلا منه و رحمة انه تعالى يقول فى حديث قدسى و فى أسلوب كله رأفة (يا عبادى إنكم تخطئون بالليل و النهار و أنا اغفر الذنوب فاستغفرونى اغفر لكم) و

---

[٦٩] المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩.

[٧٠] هود / ١١٢.

[٧١] الجانب العاطفى من الاسلام ص ١٧٥ محمد الغزالى.

الرسول الكريم يقول "كل ابن آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون). و ما من شك في أن توبة العوام كما يقول (ذا النون) هي من الذنوب و أما توبة الخواص فهي من الغفلة.

و رسول الإسلام العظيم صلى الله عليه وسلم يخبر بان الله جل جلاله يفرح بتوبة عبده المؤمن و انه جل جلاله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا عند ثلث الليل الأخير فينادى.

ألا هل من مستغفر فاغفر له ألا هل من تائب فأتوب عليه و يقول الله تعالى:-

قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا).

و لذلك فلقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم — متابعة للأوضاع الإسلامية- يبدءون أعمالهم الهمة بالتوبة، و الرحلة المباركة رحلة (الإسراء و المعراج) بدأت بشق الصدر و شق الصدر بالنسبة لنا — على حد تعبير الدكتور عبد الحليم محمود — إنما هو التوبة الخالصة النصوح لأن التوبة تطهر و طهر، و إذا تاب الإنسان فان ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدره و يغسلانه بالثلج و البرد أو بماء زمزم أى يطهرانه[٧٣].

إن التوبة لها شروط وها هو الإمام النووى يوضح لنا هذه الشروط إنه يقول:-

(قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فان كانت المعصية بين العبد و بين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلث شروط:-

أحدهما: أن يقلع عن المعصية.

---

[٧٣] ص ٢٠١ أبحاث فى التصوف د / عبد الحليم محمود.

و الثاني: أن يندم على ما فعلها.
و الثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبدا.
فان فقد أحد الثلاثة لم تصح التوبة. و إن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة، و إن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، و إن كانت حد قذف و نحوه مكنه منه أو طلب عفوه و إن كانت غيبة استحله منها و يجب أن ينوب من جميع الذنوب فان تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب و بقى عليه البافى، و قد تظاهرت دلائل الكتاب و السنة و اجتماع الأئمة على وجوب التوبة.
ما اجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه بين الحين و الحين و أن يرسل نظرات ناقدة في جوانبها ليتعرف عيوبها و أمانتها و أن يعيد النظر فيما أصابها من غنم أو عزم و أن يرجع إليها- بالتوبة — و توازنها و اعتدالها رجسها الازمان وهزها العراك الدائب على ظهر الأرض تلك الدنيا الماجنة.

و من ثم نرى ضرورة العمل الدائم لتنظيم النفس و إحكام الرقابة عليها و الله عز وجل يهيب بالبشر- قبيل كل صباح — أن يجسدوا حياتهم مع كل نهار مقبل، فبعد أن يستريح الأنام من عناء الأمس الذاهب و عندما يتحركون في فراشهم ليواجهوا-مع تحرك الفلك يومهم الجديد[٧٣]، عليهم في لحظة إدبار الليل و إقبال النهار أن — يبدأوا بالتوبة عملهم الجديد.

---

[٧٣] ص ١٧٨ الشيخ محمد الغزالي الجانب العاطفي من الإسلام.

ممن تتوب الناس؟

إن الذين لا يؤمنون بوحدانية الله من المشركين و من على شاكلتهم فتوبتهم لا تصح إلا إذا آمنوا بالله جل شأنه و تركوا المعاصى التى كان يؤزهم عليها جحودهم للألوهية أو اعتقادهم فى شركاء مع الله.

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه و سلم قال (و الذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى و لا نصرانى ثم يموت و لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[٧٤].

قال العلماء: انما مضى اليهود النصارى بالذكر — مع أن الدعوة الدعوة عامة للملل كلها — لأن هؤلاء احسن من غيرهم حالا فهم أصحاب كتب سماوية و إذا ثبت هذا الحكم فيهم فهو فى من دونهم أوجب، و لا شك فى أن الشيوعيين الوجوديين و اخرابهم انزل رتبة من أهل الكتاب على ما فى عقائدهم من دخل.

و توبة هؤلاء فى أن يتركوا ما هم فيه و أن يعتنقوا ما انزل الله تعالى فى الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام الخالدة أما الذين اسلموا لله و آمنوا بدين الحق فان توبتهم تكون من الذنوب التى ارتكبوها فى لحظة ضعف أو سوء عمل أو بلادة حس و إذا كان هؤلاء الذين ارتكبوا بعض الذنوب فى حاجة إلى التوبة فان أهل الطاعة فى حاجة إليها كذلك.

من الخلل الذى يقع فى الطاعات نفسها فان أحدا قلما يأتى العبادات المطلوبة مبرأة من كل عيب. و إن العبد لينظر فى صلاته فيرى أن ضبابا من الغفلة اعترضته فى أونات كثيرة و هو يقف أمام الحق تبارك و تعالى

---

[٧٤] رواه مسلم.

بل إن الرسول العظيم و مكانته العظيمة و عبادة التى كانت كلها لله (قل إن صلاتى و نسكى و محياى و مماتى لله رب العالمين).

تقول إن هذا الرسول الذى يقول الله فيه (و إنك لعلى خلق عظيم) كان يستغفر الله مرارا عديدة أناء الليل و أطراف النهار، يقول صاحب قوت القلوب:

و لا تنظر أيها التائب إلى صغر الخطيئة و لكن انظر إلى من عصيت فقد كانت الصغائر عند الخائفين كبائر و كان من الصحابة من يقول إنكم لتعملون أعمالا هى ارق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها فى زمن النبى صلى الله عليه و سلم من الموبقات و ليس معنى ذلك إن الكبائر التى كانت على عهد النبى صلى الله عليه و سلم صارت بعده صغائر و لكن معناه انهم كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة الله فى قلوبهم و لم يكن ذلك الوجدان فى قلوب من بعدهم من المؤمنين.

و لقد اختلف الصوفية فى نسيان ما مضى من الذنوب فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك، و قال آخر حقيقة التوبة إن تنسى ذنبك و هذان طريقان لطائفتين و حالان لأهل مقام فأما ذكر الذنوب فطريق السرية بين و حال الخائفين و أما نسيان الذنب فطريق العارضين و حال المحبين.

ومن هذا كانت عناية الصوفية بالتوبة لأنها بداية طريق طويل فى حاجة إلى مجاهدة و إخلاص و مثابرة و مصابرة.

الورع

مما لا شك فيه أن ترك المعاصي من أسمى الأهداف التي تنادي بها الشرائع و من الخير – و الأمر كذلك – إن نبتعد عن كل شيء يدنينا من المعاصي أو يقربنا منها حذرا من الوقوع فيها و خوفا من السير في طريقها و هذه حيطة لا بد منها ذلكم إن الذى يبغض الرذيلة يجعل بينه و بينها مجانا كثيفا و يرسم لحياة طريقا بعيدا عنها حتى لا تجذب كثرة الإغراءات التي تحيط بها و التي يتورع عنها.

و توجيه الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم كثير مستفيض فيما يتعلق بالورع و ها هو النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(إن الحلال بين و إن الحرام بين و بينهما متشابهات لا يعلمهم كثير من الناس فمن اتقى الشبهات و استبرأ لدينه و عرضه، و من وقع في الشبهات و قع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا و إن لكل ملك حمى ألا و إن حمى الله محارمة، ألا و إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله و إذا فسدت فسد الجسد كله ألا و هي القلب)[٧٥]

إن العبد الذى يصل إلى الورع عليه أولا أن يتيقظ لما آل- إليه آمره و إن يأس على ماضى ضاع و قد زخر بالمعاصي ثم عليه أن يتوب عما اجترحته يداه من سيئات إزاء الخالق و المخلوقات- و أن- يعزم عزما أكيدا على تجنب ما حرم الدين و التمسك بما أباح و مما احل و بعدئذ يرتقي درجة أخرى هي أن يعتاد قياس الحلال و الحرام بمقاييس متشددة و عنيفة و

---

[٧٥] أخرجه الشيخان.

قاسية هى مقايس الورع و هى متفقة من حيث الدرجة و النوع عن المقاييس الشرعية التى وضعت من اجل الكافة، فليس كل الحلال - فى نظر الورع - سواء فهناك حلا ل لا يعصى الله فيه و حلال لا ينسى الله فيه و هناك حلال بين و حلال فيه اشتباه و ينبغى على العبد أن يتورع عن كل ما فيه دخل حتى يكون مستريح القلب و قد صدق الرسول صلى الله عليه و سلم حين احتكم إلى القلب فأناط بالإنسان أن يميز الإثم بما حال فى الصدر فجعل الإنسان جديرا بأن يكون حارسا على نفسه و مصدرا من مصادر الرقابة على ذاته و مميزا للحلال و الحرام يضاف إلى مقاييس التميز الأخرى المنقولة و المعقولة، فالورع إذن ليس عملا صرفا و لا جهجا محضا و إنما يقترن بالمعرفة و الصبر و النقد و تمحيص الأمور فإذا الف بمرور الأيام هذا اللون من التربية المتفوقة أمكن أن يدخل - بعد ذلك - إلى صفوف الزاهدين حيث الدنيا بأسرها لا تساوى شيئا[٧٦].

يقول ذكى مبارك:

و من المقامات الشريعة مقام الورع و هو ملاك الدين و من الصوفية من يتورع عن الشبهات و هى بين الحلال البين و ما لا يقع عليه اسم حلال مطلق و لا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك و منهم من يتورع عما يقف عنه قلبه و يحيك فى صدره، و هذا لا يعرفه ألا أرباب القلوب، و هناك ورع العارفين و الواجدين و هم الذين يرون أن كلا ما يشغلك عن الله فهو مشئوم عليك[٧٧] و من اشرف ما قيل فى الورع قول أبى سعيد الخراز: الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق و من مناقيل الذرحتى لا يكون لأحدهم

---

(٧٦) ص ٢٤١ د / ابراهيم بسيونى : الامام القشيرى مذهبه فى التصوف.

(٧٧) اللمع ص ٤٥.

قبلك مظلمة و لا دعوى و لا طلبة[٧٨]. و هذا رأى سديد فنحن فى الأغلب ننسى حقوق الناس و هى كثيرة جدا يتصل بعضها بالسلوك و بعضها بالمعاش و لا يستطيع تحقيق الورع على هذا الوجه إلا الأقلون[٧٩].

و الورع يكون فى القول و الفعل أما ورع القول فانه البعد عن اللغو بكل ضروبه و أنواعه فلا يشغل الإنسان وقته بحديث ليس له ثمرة و لا فائدة و إنما ينصرف الإنسان بكليته إلى ما يفيده ويسمو به فلا ينشغل بشيء سوى الله تعالى وحتى يصل إلى ما يقوله الشبلي: الورع أن تتورع عن كل ما سوى الله و الورع فى الفعل إنما يكون بالتحرى فيما يتعلق بالمأكل و المشرب و الملبس حتى يكون كل ذلك من حلال طيب يقول الإمام على أما الورع فانه ترك الشبهات و قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن تقع فى باب من الحرام و يقول يحيى بن معاذ الورع على وجهين ورع فى الظاهر و هو أن لا يتحرك إلا لله تعالى و ورع فى الباطن و هو ان لا يدخل قلبك سوى الله تعالى- و دخل الحسن البصرى مكة ذات يوم فرأى غلاما من أولاد (علي بن أبى طالب) رضى الله عنه قد اسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس فوثب-عليه الحسن البصرى و قال له ملاك الدين؟ فقال الورع فقال له ما آفة الدين فقال: الطمع و عندما سئل السبلى عن الورع فقال؟ أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين.

---

[٧٨] ص ٥٥ المجع السابق.

[٧٩] ذكى مبارك ص ١٥٩ للتصوف الاسلامى.

إن أهل الورع قد وهبوا حياتهم لغاية أعلى ومقام أسمى فهم- من اجل ذلك- يرون في الله عز وجل عوضا عن كل فائت وهم - تبعا لذلك- ينظرون إلى عرض الدنيا نظرة من يحكم عليها من أعلى لا من تتحكم فيه وهو دونها أو وراءها.

التوكل

التوكل شعور بهيمنة الله جل جلاله على الحياة، و بأن حركتها و سكينتها محكومة بحوله و قوته لا يمكن أن تتقدمه أو تبعد عنه، و استقرار هذا الشعور في القلب يجعل صلة الإنسان بربه عميقة و مطلقة التفويض إليه كاملا شاملا تاما انه كما يراه القشيري اختيار الله وكيلا و لا يكون ذلك إلا بقطع العلائق عن الدنيا و الخلائق بل و اكثر من ذلك قطع الوشائج الخفية التي تصل الإنسان بتدبيره أو في عبارة أدق بشعوره بالقدرة على التدبير، لأن الثقة التامة في الله الوكيل ينبغي ألا يعتورها أو في ريب أو يشوبها تحيز أو تردد، يقول القشيري في كتاب التحبير[٨٠] عند الصفة الإلهية: (الوكيل): (وكيل على فعيل بمعنى مفعول فمن عرفه وكل إليه أموره، فهو المبتلي لأحوال عباده، يصرفهم على ما يشاء و يختار، و إذا تولى أمر عبد بجميل عنايته، كفاه كل شغل و أغناه عن كل غيره فلا يستكثر العبد حوائجه لعلمه أن كافيه مولاه و اعلم أن من جعل المخلوق وكيلا له فانه يسأله الأجر و قد يخونه في ماله و قد يخطئ في تصرفه أو يخفى عنه الأصوب و الأرشد لصاحبه من رضى بالله وكيلا أعطاه الأجر و حقق ماله و أثنى عليه و لطف به في دقائق أحواله بما لا تهتدي إليه آماله، و لا يحيط بتفاصيل سؤاله- و من جعل الله عز وجل وكيله لزمه أيضا أن يكون وكيلا لله سبحانه و تعالى على نفسه في استثناء حقوقه و فرائضه و كل ما يلزمه، فيخاصم نفسه في ذلك ليلا و نهارا لا يفتر لحظة و لا يقصر طرفة).

---

[٨٠] ص ٤٧.

و يتلون التوكل بحسب درجاته و يأخذ اسما تابعا لدرجته فيكون توكلا و يكون تسلما و يمون تفويضا، و التوكل بداية هذا المقام الروحى و التسليم واسطة و التفويض نهاية ان كان للثقة فى الله نهاية.

و مع ذلك فان كلمة التوكل تطلق على كل درجاته و تستعمل فى جميع أنواعه و على هذا الوضع يأمر سبحانه و تعالى به جاهلا منه صفة لا تنفك عن الإيمان قائلا (و على الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين).

يقول أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله[٨١]

و إذا توكل الإنسان على الله سبحانه فان ثمرة ذلك آمران :

الأمر الأول: هو حب الله سبحانه (إن الله يحب المتوكلين)

الأمر الثاني: هو كفاية الله له يقول سبحانه (و من يتوكل على الله فهو حسبه)

و من هنا فان المؤمنين الصادقين هم الذين يتخذون الله تعالى وكيلا و خاصة إذا ما ظهرت الخطوب و أحالت بها الشدائد و تجمعت عليهم جنود الأعداء.

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم أيمانا و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل) و كان ثمرة هذا التوكل و النتيجة المباشرة له حفظ الله لهم و منحهم النعمة و الفضل و هذا ما سجله الله إذ يقول(فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء و اتبعوا رضوان الله و الله ذو فضل عظيم)

و إذا كانت الجنة هى الأمل و هى الرجاء و هى الغاية الكبرى التى يتطلع إليها الإنسان فان الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر بأنها سوف تكون

---

(٨١) ص ٢١٧ ابحاث فى التصوف.

للمتوكلين على الله، فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:

(أريت الأمم بالموسم[٨٢] أفرأيت أمتى قد ملئوا السهل و الجبل فاعجبنى كثرتهم و هيئتهم فقيل لى ارضيت؟ فقلت نعم؟ قال و مع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، لا يكتوون و لا يتطيرون و لا يسترقون و على ربهم يتوكلون: فقام عكاشة بن محصن الأسدى فقال يا رسول الله ادع أن يجعلنى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم اللهم اجعله منهم، فقام آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة[٨٣] إن التوكل محله القلب — و الحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى فإن تعسر شيء فبتقديره و إن اتفق شيء فبتيسيره[٨٤].

و إذا كان التوكل فى اصله إنما هو التفويض الكامل لله و إذا كان بعض الصوفية يعتمد فى التوكل على التدرج فى قطع الأسباب واحد بعض الآخر بحيث لا يبقى إلا السبب الذى يصله بالله. فهل هذا يتعارض مع أوامر الشرع فى العمل وكسب المعيشة و تحصيل الأرزاق؟ أم لا؟ بعبارة أخرى هل يصل التوكل إلى التواكل؟

مما لا شك فيه أن هذه القضية قد شغلت الصوفية و الزهاد منذ ابد بعيد، لأن الإسلام أمر اتباعه بالسعي فى مناكب الأرض— و العمل من اجل

---

(٨٢) أى موسم الحج.

(٨٣) متفق عليه.

(٨٤) ص ٤١٧ ج ١ الرسلة للتشيرية.

تحصيل الرزق كما حثهم أن ينتشروا بعد الصلاة فى الأرض لعمارتها و السعى فيها كى يكونوا منها فى القمة و لتكون لهم القوة و المؤمن يرتل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فأسعوا إلى ذكر الله و ذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض و ابتغوا من فضل الله و اذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)[٨٥] و المؤمن يردد كذلك قول الله (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور)[٨٦] و يعى المؤمن كذلك قول الله تعالى (و لقد مكناكم فى الأرض و جعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون)[٨٧] و المؤمن يقرأ فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قول الرسول صلى الله عليه و سلم (لإن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحد فيعطيه أو يمنعه) و قول الرسول (إن الله يحب المؤمن المحترف)[٨٨] و يدرك المؤمن كذلك قيمة العمل فى شريعة الإسلام و يعلم أن سيدنا عمر رضي الله عنه مر على قوم من أهل اليمن كانوا جلوسا بغير عمل فقال لهم من انتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، فقال كذبتم: بل انتم المتواكلون: إنما المتوكل على الله هو الذى القى حبه فى الأرض و سقى الزرع و توكل على الله، و أن الرسول صلى الله عليه و سلم دخل مسجده ضحى يوم فوجد رجلا جالس فى المسجد فقال له رسول الله: ما اجلسك يا أبا إمامة فى المسجد فى غير وقت الصلاة؟

---

[٨٥] الجمعة ٩-١٠.

[٨٦] تبارك/ ١٥.

[٨٧] الأعراف/١٠.

[٨٨] رواه الطبرانى و البيهقى.

فقال يا رسول الله ديون ركبتني و هموم لزمتني فلن أستطيع أن أواجه الناس فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل و أعوذ بك من غلبة الدين و قهر الرجال) قل اللهم إني أعوذ بك من الهم و الحزن و أعوذ بك من العجز و الكسل و أعوذ بك من الجبن و البخل و أعوذ بك من غلبة الدين و قهر الرجال).

و لقد كان سيدنا الرسول يعمل و أزواجه يعملن، و كانت بنته فاطمة رضوان الله عليها تندف الصوف لقوت أولادها و هذا سيدنا علي كرم الله وجهه يعمل أجيرا ينقل الماء من البئر حتى سجلت يداه (احمرت) من اثر الحبل و لما أتم العمل أخذ الأجر ثمرات فعاد إلى منزله فقابله رسول الله فقال أين كنت يا علي؟ قال يا رسول الله كنت اعمل. استأجرتني سيدة على عمل في الماء و الطين و هذه الثمرات أجرتي على العمل. فقال له رسول الله: ناولني ثمرة من ذلك الكسب الطيب. و اخذ الرسول يربت على كتفه و يتمسح بكفه و يقول : تلك يد مباركة بارك الله فيها.

فما موقف الصوفية من هذا كله؟

الحقيقة أن الصوفية ترى أن التوكل ليس ترك الأسباب و لهم في الرسول العظيم قدوة حسنة فلقد أخذ بالأسباب كلها و هو مهاجر إلى الله و لهم في الصديق رضي الله عنه أسوة فعندما بويع بالخلافة أصبح ذاهبا إلى السوق يتاجر كعادته و عندما تساءل الناس كيف تفعل ذلك؟ قال لهم لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع إن العمل من أجل لقمة العيش لا يعارضه أحد من الصوفية و لا يختلف في ذلك أحد منهم و لكن الخلاف -إن وقع- يكون حول هذا المقدار فلقد حدث حوار بين مالك ابن دينار و محمد ابن أوسع في هذا المكان فكان الأول يرى أن من الخير أن يقتني المرء قطعة أرض يزرعها و يحصدها و يعيش من ثمرها دون حاجة إلى الناس بينما يرى الثاني أن الخير في أن يجد المرء أكلة الصباح دون أن يدري ماذا سيأكل في المساء التالي[89]، إن الصوفية تأخذ بالأسباب و لا ترى في ذلك تعارضا مع التوكل و عباراتهم تدل على ذلك يقول سهل التوكل حال النبي صلى الله عليه و سلم و الكسب سنته، فمن بقي على حاله فلا يتركن سنته[90]، و يقول الإمام الغزالي: و قد يظن أن معنى التوكل ترك الاكتساب بالبدن و ترك التدبير بالقلب و السقوط على الأرض كالخرقة الملقاة و كاللحم على العضم، و هذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع، و يقول القشيري كما سبق (التوكل محله القلب و الحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى و إن تعسر شيء فبتقديره و إن أتفق شيء فبتيسيره.

---

[89] تذكرة الحافظ جـ ٤ ص ٣٩ للذهبي.

[90] ص ٤٢١ جـ ١ الرسالة القشيرية.

نخلص من هذا كله إلى أن الصوفية تسير فى طريق الرسول صلى الله عليه وسلم و طريق السلف الصالح فتأخذ بالأسباب و ترى العمل من لوازم الحياة و لكن فى الوقت نفسه ترى أن الصوفى يحذر أن يندفع الإنسان وراء الدنيا متكالبا عليها مهرولا فى طلبها و إلا صار عبد لهواه، و ألا يذل جبينه لمخلوق من أجل عرض زائل، و إذا عرف العبد أنه لا رازق إلا الله، لم يعلق قلبه لأحد فى طلب شىء و لم يتذلل بالإرتفاق لمخلوق، إن الصوفية ترى أن التوكل على الله الذى بيده الأمر كله هو المعين فى كل عمل و المؤنس فى كل وحشة و المشجع فى كل عبادة إنه ليس فقط القوة المعنوية التى يتحاملون بها على جراحاتهم (و ما لنا أن نتوكل على الله و قد هدانا سبلنا و لنصبرن على ما آذيتمونا و على الله فليتوكل المتوكلون)[٩١] و أخيرا فإن التوكل على الله هو ارتباط وثيق بالمصدر الدائم الخير الذى لا يفنى و لا يبلى و لا يتناهى (و توكل على الحى الذى لا يموت) صدق الله العظيم.

---

[٩١] إبراهيم / ١٢.

الأحوال

يحسن بنا و قد تكلمنا عن شيء من المقامات أن نتحدث عن شيء من الأحوال و أنتم تعلمون مما سبق أن المقامات جهود إنسانية كسبية و أن الأحوال فيوضات وهبية أو أن المقامات جهود و الأحوال من عين الجود.

إن الصوفي و هو في طريق الرحلة إلى الله تعالى و بعد رياضات و مجاهدات يصفي القلب فيها من الشوائب و الكدورات العالقة به من بقايا النفس يرقى العبد إلى مرحلة أعلى و هي الروح و هي دون شك أقل شوائب من القلب و هي محل الأحوال و هي الفيوضات الربانية و هي أيضا محل المحبة، و مع هذا فإن الروح لا تخلو من الشوائب و لكن على نطاق أضيق و أقل و لذا فإن الصوفي في حاجة إلى الأستمرار في الجهود و الرياضات و المجاهدات و العبادات حتى تصفو روحه و تتهيأ بعد ذلك إلى أن ترقى إلى مرحلة أعلى هي مرحلة السر و يرى معظم الباحثين إلى أن هذه هي أعلى مرحلة في الرحلة و أن السر للحق دون الخلق، و ليس لأحد عليه اطلاع و أن ما يجرى في السر ينصرف الإرادة الإلهية و ليس للعبد من نفسه في نفسه شيئا بل لقد أصبح كالميت في يد الغاسل أما الإمام القشيري فإنه يرى أن هناك شيئا أعلى من السر وهو سر السر أو عين السر و على ذلك فإن الصوفي بعد انتهائه من المقامات يدخل بعد ذلك في منطقة الحب الذي يتدرج إلى فناء الذي يتدرج إلى عرفان.

و على ذلك فالأحوال فيوضات ربانية متدرجة في مراحل الحب و الفناء و العرفان أو المعرفة.

الحب

يقول الله جل جلاله (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم و يحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله و لا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله واسع عليم)[٩٢] و قد جاء فى الحديث القدسى (من عاد لى وليا فقد آذنته بالحرب و ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه، و ما يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها، و رجله التى يمشى بها، و لئن سألنى لأعطيته و لئن استعان بى لأعنته).

إن محبة الله تعالى هى قوام كل شىء فى المنهج الصوفى فالكون خلق بالحب و يدرك الحب، و الله جل جلاله لا تدركه الأبصار و لا تحيط به العقول و لكن الصوفى يوقد مشاعل الحب فى قلبه و وجدانه و روحه فيمتطى بذلك المعراج الأكبر الذى يصله بربه سبحانه و تعالى و معراجه هى الصلاة بنوافلها و فرائضها بل هو كل ما فرضه الله تعالى على عباده و العمل بكل ما قال به الرسول وعمل به الرسول إنه اتباع مطلق للرسول، ذلكم لأن محبة الله تعالى لا يصل إليها المؤمن إلا عن طريق اتباع النبى صلى الله عليه وسلم. (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)[٩٣].

يقول أبو سعيد الخراز:

---

[٩٢] المائدة / ٥٤.

[٩٣] آل عمران / ٣١ .

(و بلغنا عن الحسن البصرى رضى الله عنه: أن أناسا قالوا على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم: يا رسول الله إنا نحب ربنا حبا شديدا فجعل الله تعالى لمحبته علما و أنزل عز و جل (قل إن كنتم تحبون الله فأتبعوني يحببكم الله).

فمن صدق المحبة: اتباع الرسول صلى الله عليه و سلم فى هديه و زهده و أخلاقه و التأسي به فى الأمور و الإعراض عن الدنيا و زهوتها و بهجتها فإن الله عز و جل جعل محمدا صلى الله عليه و سلم علما و دليلا و حجة على أمته. و من صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز و جل في جميع الأمور على نفسك و هواك و أن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

و الصوفي و هو يحب ربه يسير في هذا على نهج المصطفى صلى الله عليه و سلم الذى يعده القشيرى الصوفى الأول، و كان حاله فى غار حراء حال محبة و في ذلك يقول الإمام الغزالى (المحبة أول حال رسول الله صلى الله عليه و سلم حين كان يتبتل و حين أقبل إلى جبل حراء يخلو إلى ربه و يتعبد حتى قال العرب إن محمدا قد عشق ربه)[٩٤].

إن الذين يحبهم الله و يحبونه هم هؤلاء الذين بدينهم من كل مؤمن به و يكرههم في كل فاسق عن أمره و يطلقهم في العالم سلما لأوليائه حربا على أعدائه، تنهض بهم رسالات الخير و تنهزم أمامهم ألوان الشر، و إذا صحت محبة الله فى قلب امرئ فقد تبوأ قمة الكمال و تهيأ لفضل من الله جزيل ذلكم أن الشعور بحب الله تعالى ليس متاحا لكل إنسان، إنه سمو يتخير الله

---

[٩٤] ص ١٤٦ المنقذ من الضلال للغزالي تعليق د. عبد الحليم محمود الطبعة الخامسة.

له من يشاء و لذا فإن الله يقول (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله واسع عليم) إنه منه تسيل من عين الجود قبل أن تكون كسبا تتجه إليه الإرادة[٩٥].

أحوال المحبين:

إن المحبين على ثلاثة أحوال:

الحال الأول: محبة العامة و يتولد ذلك من إحسان الله إليهم و عطفه عليهم و شرط هذا الحال صفاء الود مع دوام الذكر و موافقة القلوب لله و بذل المجهود و المبالغة في الثناء على المحبوب.

الحال الثاني: يتولد من نظر القلب إلى جلال الله و عظمته و علمه و قدرته و هو حب الصادقين و شرطه هتك الأستار و كشف الأسرار و محو الإيرادات.

الحال الثالث: فهو محبة الصديقين و العارفين و هي تتولد من نظرهم و معرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة، فيحبونه كذلك بلا علة و قد سئل ذو النون فقيل له ما المحبة الصافية التي لا كدرة فيها؟ فأجاب: حب الله الصافي الذي لا كدرة فيه سقوط المحبة عن القلب و الجوارح حتى لا تكون فيها المحبة و تكون الأشياء بالله ولله فذلك المحبة لله.

و الصوفية يشترطون في الحب أن يتصل بأدب النفس، فمن المحبة الاستراحة إلى علم الله وحده بحال المحب و إخلاص المعاملة لوجهه و حسن الأدب فيها و هو الإخفاء لها و كتم ما يحكم به من الضيق و الشدائد و إظهار ما ينعم به من الألطاف و الفوائد و كثرة التفكير في نعمائه وخفي

(٩٥) ص ٢٨٣ الجانب العاطفي من الإسلام: الأستاذ الشيخ محمد الغزالي.

...قة و غرائب صنعه و عجائب قدرته و حسن الثناء عليه في كل حال و الصبر على بلائه، لأن المحب قد صار من أهله و أوليائه و المحبوب قد يعنف بأحبائه لتمكنه منهم و مكانتهم عنده لعلمه أنهم لا يريدون به بدلا و لا يريدون عنه حولا إذ ليست لهم راحة لسواه و لا بقية في سواه و لا هم لهم إلا فيه كما قال بعض المحبين: ويلي منك و ويلي عنك، أفزع منك و أشتاق إليك إن طلبتك أتعبتني و إن هربت منك طلبتني فليس لي معك راحة و لا لي في غيرك استراحة[٩٦]. و كانت رابعة العدوية من المحبين سألها النوى فقال: لكل عبد شريطة و لكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدته جوفا من النار فأكون كالأمة السوء إن خافت عملت، و لا حبا في الجنة فأكون كأمة السوء إن أعطت عملت، و لكنى عبدته حبا له و شوقا إليه.

يقول الحارس المحاسبي: المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك و روحك و مالك ثم موافقتك له سرا و جهرا ثم علمك بتقصيرك في حبه[٩٧] و يقول عبد الله بن المبارك من أعطى شيئا من المحبة و لم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع و يقول الجنيد عن المحبة: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته وصفا شربه من كأس وده، و أنكشف له الجبار عن أستار غيبه،

---

[٩٦] ص ٨٠ جـ ٣ قوت القلوب للمكى.

[٩٧] ص ٦١٨ الرسالة القشيرية جـ ٢ تحقيق د. عبد الحليم محمود.

فإن تكلم فبالله و إن نطق فعن الله و إن تحرك فبأمر الله و إن سكن فمع الله فهو بالله و الله مع الله[٩٨].

و مقتضى حب الله عز و جل أن يطيع الإنسان أمره و يدع نيته و يحرص على رضاه ذلكم لأن حب الله تعالى قد ملك فؤاده و سيطر على نفسه و استولى على روحه فأصبح حب المؤمن ربه أربى من أي عاطفة أخرى عند أي إنسان آخر (و من الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله و الذين آمنوا أشد حبا لله). و هذا الحب إنما يكون منحة من الله تعالى يقول المحاسى (المحبة منة إلهية أودع الله بذرتها قلوب محببة و هذه المحبة طريق لكشف أسرار الوجود[٩٩]. و يقول الجنيدى العشق ألفة روحانية و إلهام شوقي أوجبهما الله تعالى على كل ذى روح لتصل به اللذة العظمى التى لا يقدر على منالها إلا بتلك الألفة و هذا الحب يكون أيضا خالصا لله تعالى (كل محبة تكون عن ملاحظة عوض فهي معلولة و المحبة الصحيحة هى الصافية عن كل مطمع و أخيرا يقول القشيرى و محبة العبد لله حالة لطيفة بجدها من نفسه و تحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية و تقتضى منه تلك الحالة إيثاره سبحانه على كل شيء و على كل أحد و شرطها ألا يكون فيها حظ بحال فمن لم يفن عن حظوظه بالكلية فليس له من المحبة شظية[١٠٠].

---

[٩٨] ص ٦٢٣ من المرجع السابق.

[٩٩] ص ١٠١ الحياة الروحية فى الإسلام.

[١٠٠] نقلا عن د. إبراهيم بسيونى ص ٢٧١ الإمام القشيرى.

يقول الدكتور زكى مبارك:

و حب الله من أهم القواعد فى بناء الأخلاق و هو يحولنا إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شر و لا عدوان و قد يصل بنا إلى حب كل شىء فى الوجود حين نتأمل العالم كله فى صنع المحبوب، و هذا بالطبع لا يتيسر إلا حين يغلب علينا الصفاء فننسى البغض و الحقد و الانتقام و الحسد و سائر الدسائس الصغيرة التى تفسد جمال الحياة و تصير الأحياء أشقياء[١٠١].

---

[١٠١] ص ١٦١ التصوف الإسلامى د. زكى مبارك.

مراقبة الله تعالى

أما الدعامة الثانية من دعائم "التصوف فى الإسلام" فهى مراقبة الله تعالى" و هى كدعامة (الزهد) تنبع من القرآن الكريم و السنة المطهرة وحياة رسول الله صلى الله عليه و سلم فى واقع سيرته الكريمة، وحياة أصحابهم فى تطبيقهم السلوكى لما شاهدوه من حياته صلى الله عليه و سلم و علموه من القرآن الكريم، و حياة تلاميذهم من التابعين.

و سبيلنا فى هذا هو سبيلنا فى (الزهد) نسوق النصوص و الحوادث، و نصور النماذج فى وقائعها البارزة حتى تتبين لنا وقائع الطريق فى فهم "التصوف فى الإسلام" و نتبين أن هذا "التصوف" هو فى حقيقته العملية التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه و التابعون لهم بإحسان روح الإسلام و خلاصة آدابه السامية التى تمثلت عملا فى أخلاق المسلمين الأولين.

نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم هاديا مرشدا، و مؤدبا مهذبا، و مشرعا معلما، و له فى ذلك كله طرائقه الخاصة التى توقظ العقول و تنبه القلوب، و تحرك الضمائر حتى تقع هدايته و إرشاده موانعها من أغرار النفس الإنسانية، و يقع أدبه و تهذيبه من التاوب موقع الرضا و القبول، و يقع تشريعه و تعليمه من العقول موقع الحكمة المرغبة فى الامتثال-و هو فى إطار الهداية العامة و الخاصة-آمرناه، موعد واعد، مرغب مرهب، داع محذر يقصد ألى التحبيب فى الخير، و التنفير من الشر، توجيها للحياة وجهة الإصلاح.

و نراه ربط الأمر بالوعد، و النهى بالوعيد بيانا لمنزلتى الثواب و العقاب، اللذين جعلها الله فى طبائع الناس حوافز للاستجابة، و حوافز دون الاقتحام، و النفوس الإنسانية واقعة بين شراهة الغرائز و منطق العقل و إشراق الروح (و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها قد أفلح من زكاها و قد خاب من دساها) و لا بد لها لكى تستجيب إلى منطق العقل و تتغلب على شراهة الغرائز و ترقى إلى أفق الإشراق الروحى من قوة قاهرة تزعجها حتى لا تستكين و تستسلم لدواعى الغرائز و قد جعل الله لها هذه القوة القاهرة فى داخل ذاتها، تلك هى قوة الضمير، و هذا الضمير هو مهبط الإلهام، فإذا أستيقظ هذا الضمير فى داخل النفس الإنسانية استشعرت مراقبة الله، و استحضرت عظمته و علمه المحيط، و تمثلت قوته و قهره، و أنه المالك لنواصى العباد الرقيب عليهم المحصى لأعمالهم، الذى لا يخفى عليه خافية (و يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله و يعلم ما فى السموات و ما فى الأرض و الله على كل شىء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خيرا محضرا و ما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا و يحذركم الله نفسه و الله رءوف بالعباد) إذا استشعرت النفس الإنسانية ذلك، و أستحضر العاملون فى الحياة عظمة الله، و اطلاعه على علانيتهم و سريرتهم و أنهم موقوفون بين يديه، مسئولون عن أعمالهم، محاسبون عاى ما قدموا من آثار فى حياتهم مجزيون على الخير خيرا و ثوابا، و على الشر نكالا و عقابا إذا استحضرت ذلك كانت فى عملها مراقبة لله تعالى، تحذر بطشه و عقابه و ترجو رضاه و ثوابه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شرا يره)، (و

نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا و إن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين).

و استحضار عظمة الله تعالى و مراقبته عند أي عمل يقوم به الإنسان هو الإحسان الذى بينه النبى صلى الله عليه و سلم فى حديث جبريل فقال (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) و العبادة فى الإسلام كل عمل يأتى به المؤمن على وجه الإخلاص و المراقبة لله تعالى (إنما الأعمال بالنيات) سواء أكان هذا العمل من أعمال الدنيا و إصلاح الحياة، أو كان من عمل الآخرة و تهذيب النفس و تطهير القلب و تصفية الروح، و هذا معنى قول الله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين الا لله الدين الخالص) و الآية عامة تتناول جميع التكاليف التى أنزل بها الكتاب من الأوامر و النواهى، فمن راقب الله و ألزم قلبه فى جميع أعماله أن الله تعالى يراه فى سره و علانيته استحيا من جلال الله أن يراه ربه على ما لا يحبه منه، فيستنير قلبه و يسكنه الخوف من بطش الله، و يدوم عليه الحذر من سخطه، و غضبه، مشفقا على نفسه معظما لأمر الله، لا تأخذه فى الله لومة لائم، لا يرعى فى عمله إلا جلال الله و عظمته حتى يصغر فى عينه كل مخلوق دون الله تعالى.

روى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه مر فى إحدى سفراته بغلام يرعى غنما، فقال له تبيع من هذه الغنم واحدة، فقال الغلام: إنها ليست لى فقال ابن عمر-يمتحن أمانته قل لصاحبها: إن الذئب أخذ منها واحدة، فقال الغلام: فأين الله؟ فكان ابن عمر زمنا طويلا يردد على نفسه قول الغلام: فأين الله؟.

و مراقبة الله في السر و العلن منزلة من منازل المخلصين الأولين، و فيها يقول بعضهم: من راقب الله في خواطره عصمه الله من جوارحه.

و آيات المراقبة لجلال الله تعالى باستحضار علمه المحيط بسرائر خلقه، و استحضار خشيته جاءت في القرآن الكريم بأساليب متنوعة و أفانين مختلفة لتجذب النفوس إلى مسالكها، و نحن نورد منها ما يأتي:

١) يقول الله تعالى (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم).

٢) و يقول الله عز شأنه (و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و الله على كل شيء قدير).

٣) و يقول تبارك و تعالى (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله و يعلم ما في السموات و ما في الأرض و الله على كل شيء قدير يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا و ما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا و يحذركم الله نفسه و الله رءوف بالعباد).

٤) و يقول جل جلاله (لا يتخذ المؤمنون الكافرون أولياء من دون المؤمنين و من يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة و يحذركم الله نفسه و إلى الله المصير).

٥) و يقول عز وجهه (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بث منهما رجالا كثيرا و نساء و اتقوا الله الذي تساءلون به و الأرحام إن الله كان عليكم رقيبا).

٦) و يقول عز شأنه في وصف حال أهل مراقبته (و الذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة انهم إلى ربهم راجعون). و معنى ذلك في حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت سألت رسول الله صلى الله عليه و سلم فقلت يا رسول الله (الذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة) هو الذي يزني و يسرق و يشرب؟ فقال النبي صلى الله عليه و سلم: (لا، و لكن هو الذي يصلي و يصوم و يتصدق و يخاف ألا يقبل منه).

٧) و يقول عز من قائل (ألم يعلما أن الله يعلم سرهم و نجواهم و أن الله علام الغيوب).

٨) و يقول تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد).

٩) و يقول جل شأنه (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو رشيد).

١٠) و يقول تبارك و تعالى (فالهكم إله واحد فله أسلموا و بشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و الصابرين على ما أصابهم و المقيمي الصلاة و مما رزقناهم ينفقون).

١١) ويقول تعالى (و ليعلم الذين أوتو العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم).

١٢) و يقول سبحانه (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت آياته زادتهم إيمانا و على ربهم يتوكلون).

١٣) ويقول عز وجهه (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا أحصاه الله و نسوه).

١٤) ويقول تعالى (و ما تكون في شأن و ما تتلو منه من قرآن و لا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه و ما يعزب عن

ربك من مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء و لا أصغر من ذلك و لا أكبر إلا في كتاب مبين).

هذه آيات من القرآن الكريم سقناها كنماذج لرعاية مقام المراقبة، و هو مقام له شأنه العظيم عند أكابر الصوفية، و هو ركن من أركان "التصوف في الإسلام" نادى به القرآن و أكثر من التنبيه عليه و جعله أساس الإيمان الصحيح و مدخل الإخلاص إلى قلوب العابدين.

و هو من أوسع المقامات، يبدأ بالتوبة العامة من عامة المخالفات الشرعية و هذه توبة عامة، أما توبة الخاصة فهي التبرؤ من الاغيار و المعوقات عن سير النفس إلى منازل التبتل و الانقطاع عن الخلق.

و هناك توبة خاصة الخاصة. و هي عدم الالتفات إلى ما كان و ما يكون تعبدا و خشية، و هذا ما يرمز إليه الحديث الصحيح في قوله صلى الله عليه وسلم (إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) و هذا استغفار شكر و مراقبة لجلال الله وعظمته. لأنه صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بربه و أخشاهم له، و قد روى من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم صنع شيئا ترخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه و سلم فحمد الله ثم قال ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله و أشدهم له خشية.

و كان صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، و لبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، و لخرجتم إلى

الصعدات تجأرون إلى الله. و فى حديث عبد الله بن الشخير أنه قال أتيت النبى صلى الله عليه و سلم و هو يصلى، و لجوفه أزيز كأزيز المرجل.

و هذه جملة من الأحاديث تدل على كثير من المعانى التى أشرنا إليها فى عناصر "التصوف العملى".

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (إن الله عزو جل قال من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب، و ما تقرب إلى عبدى بشىء أفضل من أداء ما افترضت عليه، و ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به و نصره الذى يبصر به، و يده التى يبطش بها، و رجله التى يمشى بها، فلئن عبدى أعطيته، و لئن أستعاذنى أعذته، و ما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض عبدى المؤمن يكره الموت و اكره إساءته-أو مساءته). و هذا الحديث الصحيح من أقوى ما يتمسك به القوم فى دعم طريقهم إلى الله بالسنة المطهرة.

و عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء و لا شهداء، يغبطهم الأنبياء و الشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز و جل) فقال رجل من هم و ما أعمالهم؟ لعلنا نحبهم، قال: (قوم يتحابون بروح الله عز و جل، من غير أرحام بينهم، و لا أموال يتعاطونها بينهم، والله إن وجوههم لنور، و إنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، و لا يحزنون إذا حزن الناس) ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون).

وعن عمرو بن الجموح رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول (قال الله عز وجل، إن أوليائى من عبادى و أحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى و أذكر بذكرهم).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه و سلم قال (إن لله عز وجل ضنائن من عباده يغذيهم فى رحمته، و يحيهم فى عافيته، إذا توفاهم توفاهم فى جنته، ألئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم منها فى عافية).

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال: قال مر عمر بمعاذ بن جبل رضى الله عنه وهو يبكى، فقال ما يبكيك يا معاذ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول (أحب العباد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، و إذا شهدوا لم يعرفوا، أولئك أئمة الهدى و مصابيح العلم).

عن قيس ابن أبى حازم رضى الله عنه قال: سمعت سعد بن أبى وقاص يقول والله إنى لأول رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل، و لقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه و سلم ما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة وهذا السمر حتى قرحت أشداقنا، وحتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط.

و عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (يا حذيفة إن فى كل طائفة من أمتى قوما شعثا غبرا إياى يريدون و إياى يتبعون، و كتاب الله يقيمون، أولئك منّى و أنا منهم و إن لم يرونى).

و عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (من سأل عنى أو سره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة أو قصبة على قصبة، رفع له علم فشمر إليه، اليوم المضمار و غدا السباق و الغاية الجنة أو النار).

و اخرج الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى رضى الله عنه أنه مر برسول الله صلى الله عليه و سلم فقال له النبى صلى الله عليه و سلم كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: انظر ما تقول، فإن لكل شىء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: كأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا، و كأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، و كأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: يا حارث عرفت فالزم. عرفت فالزم. عرفت فالزم.

و فى رواية أن النبى صلى الله عليه و سلم قال له: مؤمن نور الله قلبه. و من طريق عبد الرزاق، زاد فيه أن حارثة قال للنبى صلى الله عليه و سلم: أدع الله لى بالشهادة، فدعا له، فأغير على سرح المدينة فخرج حارثة فقاتل فقتل.

و أخرج الفريابى قال: سئل النبى صلى الله عليه و سلم عن هذه الآية: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا: كيف يشرح صدره؟ قال: (نور يقذف به فيه فينشرح له و ينفسح) قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: (الإنابة إلى دار الخلود، و التجافى عن دار الغرور و الاستعداد للموت قبل لقاء الموت).

وعن على كرم الله وجهه أنه صلى الغداة، ثم لبث فى مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح كأن عليه كآبة، فسأله بعض أصحابه عن حاله تلك؟ فقال: لقد رأيت أثرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم،فما أرى أحدا يشبههم، والله إن كانوا ليصبحوا شعثا غبرا صفرا بين أعينهم مثل ركب المغزى، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة فى يوم ريح، فانهملت أعينهم تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

وفى حديث البراء بن مالك يقول النبى صلى الله عليه و سلم (رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبوعنه أعين الناس) و فى رواية (مدفوع عن الأبواب) و فى أخرى (لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك).

وفى حديث إبراهيم بن أدهم عن عباد بن كثير بن قيس قال: جاء رجل عليه بردة له، فقعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاء رجل عليه أطمار فقعد، فقام الغني بثيابه يضمها إليه، فقال النبى صلى الله عليه و سلم: (أكل هذا تقذرا من أخيك المسلم؟ أكنت تحسب أن يصيبه من غناك شىء أو يصيبك من فقره شىء؟) فقال الغنى: معذرة إلى الله و إلى رسوله من

نفس أمارة بالسوء و شيطان يكيدني، أشهدك يا رسول الله أن نصف مالي له، فقال الرجل الفقير: ما أريد ذاك، فقال النبي صلى الله عليه و سلم: لم ذاك؟ قال: أخاف أن يفسد قلبي كما أفسده.

و مقام المراقبة مفتاح لجميع المقامات الصوفية، يندرج تحته مقامات الصبر، و الشكر، و الخوف، و الرجاء، و التوكل، و الإخلاص، و الحياء، و الرضا، و التسليم، و البذل، و الشفقة على الخلق، و غيرها.

و للصحابة رضوان الله عليهم في مقام المراقبة منازل خصوا بها تأسيا برسول الله صلى الله عليه و سلم، فالصديق كان من شدة مراقبته لله يشم من جوفه رائحة الكبد المشوي، و كان كثيرا ما يرى آخذا بلسانه و يقول: هذا الذي أوردني الموارد.

و يروى عنه أنه كان له مملوك يغل عليه، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك: مالك كنت تسألني كل ليلة، و لم تسألني الليلة؟ قال: حملني على ذلك الجوع، من أين جئت بهذا؟ قال مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني، قال: إن كدت أن تهلكني، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج، فقيل له إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب و يتقيأ حتى رمى بها، فقيل له يرحمك الله، أكل هذا من أجل هذه اللقمة؟ قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كل جسد نبت بالسحت فالنار أولى به) فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة.

و من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: لبست مرة درعالى جديدا، فجعلت أنظر إليه و أعجب به، فقال أبو بكر ما تنظرين؟ إن الله ليس بناظر إليك، قلت و مم ذاك؟ قال: أما علمتى أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة، قالت فنزعته و تصدقت به، فقال أبو بكر عسى ذلك أن يكفر عنك.

* * *

و كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شديد التعلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه و سلم و حب التأسي به فى سائر أحواله، روى أنه لما اتسع علىا الناس الرزق فى عهده، و كثر المال قالت له ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها يا أمير المؤمنين لو لبثت اليوم ثوبا هو ألين من ثوبك، و أكلت طعاما هو أطيب من طعامك؟ فقد وسع الله عز وجل من الرزق و أكثر من الخير، فقال لها إنى سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان يلقى رسول الله صلى الله عليه و سلم من قسوة العيش، فما زال يذكرها حتى أبكاها فقال لها: والله إن قلت ذلك، أما والله لئن استطعت لأشاركهما-يعنى النبى صلى الله عليه و سلم و صاحبه الصديق رضى الله عنه-بمثل عيشهما الشديد لعلى أدرك معهما عيشهما الرخي. و كان رضى الله عنه إذا نزل بالناس هم يكاد يهلك من الحزن اهتمام بأمرهم، فيخلع ثيابه، و يلبس ثوبا قصيرا، لا يكاد يبلغ ركبته، ثم يرفع ثوبه بالبكاء و الاستغفار و عيناه تزرفان حتى يغشى عليه.

و مما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شدة مراقبته لله تعالى أنه دخل السوق ذات يوم فرأى رجل يقال له سلمة قاعدا فى السوق، فقال له: هكذا يا سلمة عن الطريق، و سكت عنه عمر حتى إذا كان العام المقبل لقيه فى السوق فقال له: يا سلمة أردت الحج العام؟ قال سلمة: نعم، فأخذه بيده حتى أدخله معه بيته، فأخرج له كيسا به ستمائة درهم، فقال له: يا سلمة خذها و استعين بها على حجك، و أعلم أنها من النفقة التى غفقتك عاما أول، قال سلمة: يا أمير المؤمنين والله ما ذكرتها حتى ذكرتنيها، فقال عمر: و أنا والله ما نسيتها.

و يروى أن عليا كرم الله وجهه -و كان معه الحسن و الحسين- لقى عمر فى بعض طرق المدينة فسلم عليه و أخذ بيده، و الحسن و الحسين يكتنفاهما عن يمينهما و شمالهما فبكى عمر، فقال له على رضى الله عنه: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: و من أحق بالبكاء منى و قد وليت أمر هذه الأمة أحكم فيها و أدرى أمسىء أنا أم محسن؟ فقال له على: والله إنك لتعدل فى كذا، و تعدل فى كذا، يعدد له محاسنه فى سياسته للرعية، فما منعه ذلك من البكاء، ثم تكلم الحسن، فذكر من ولاية عمر و عدله فلم يمنعه ذلك من البكاء، فتكلم الحسين بمثل كلام الحسن، فلنقطع بكاء عمرعند كلام الحسين، ثم قال لهما أتشهدان بذلك يا ابنى أخى، فسكتا فنظرا إلى أبيهما فقال على: أشهدا و أنا معكما شهيد.

و كان عمر رضى الله عنه يمر على الناس متسترا ليتعرف أخبار رعيته، فمر بعجوز فى خبائها فسلم عليها و قال لها: ما فعل عمر؟ قالت: لاجزاه الله عنى خيرا، قال لها: و لم؟ قالت: لأنه والله ما نالنى من عطائه منذ واى أمر

بن دينار و لا درهم، فقال لها: و ما يدرى عمر بحالك و أنت فى هذا الموضع؟ قالت سبحان الله، والله ما ظننت أن أحدا يلى على الناس و لا يدرى ما بين مشرقها و مغربها، فبكى عمر و قال لها: يا أمة الله بكم تبيعنى ظلامك من عمر؟ فإنى أرحمه من النار، فقالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله، فقال لها لست بهزاء، فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة و عشرين دينارا، فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب و ابن مسعود رضى الله عنهما فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فوضعت يدها على رأسها و قالت: وا سوأتاه؟ شتمت أمير المؤمنين فى وجهه، فقال لها عمر: لا بأس عليك رحمك الله، ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته و كتب فيها "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى إلى يوم كذا و كذا بخمسة و عشرون دينارا، فما تدعى عند وقوفه فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر منه برىء". شهد على ذلك على بن أبى طالب و ابن مسعود، ثم رفع الكتاب إلى ولده و قال: إذا أنا مت فاجعله فى كفنى ألقى به ربى.

رجال و نظريات

فى التصوف رجال هم كأعلام تضئ كلماتهم الطريق و ترسمه و تحدده إنهم عباد الرحمن الذين استهدفوا وجهه سبحانه، و صعدوا بقلوبهم و أرواحهم إلى الأفق الأعلى مع الملأ الأعلى، لا يستنكفون عن عبادة ربهم و لا يفترون عن ذكره وحده، قوتهم طاعة و حياتهم عبادة و وجودهم قرب و ذوقهم علم و بساطتهم أبس و خلقهم قرآن، إنهم أمناء الله عز و جل فى أرضه و صفوته من خلقه،

إنهم علماء حكماء قاموا بشرط العلم ثم عملوا به ثم تحققوا فى العلم فجمعوا بذلك بين العلم و الحقيقة و العمل،

و لهذا كان الصوفية عبر التاريخ نماذج رفيعة للجلال الخلقى و الروحى و مثل عليا للكمال التعبدى و الإيمانى و نماذج سامقة فى الحكمة و العلم و المعرفة و هم كما يقول "ماسيميوت":

إن رجال المعرفة الصوفية فى الإسلام كانوا دائما النماذج التى تقدم لنيل الصورة الحية للمفكرين الكبار فى الإسلام.

و يقول شاعر الإسلام العظيم محمد إقبال:-

إن الإسلام عند الصوفية يأخذ طابعا من الجمال و الكمال و الإنسانية و الأخوة العالمية لا نجده فى إسلام الفقهاء أو المتكلمين[١٠٢] و سوف نقدم للقارىء الكريم بعض هؤلاء الرجال و نظرياتهم و مذاهبهم الصوفية التى أثرت الحياة الروحية فى الإسلام و التى ثار على بعضها فقهاء هذه الأمه و

---

[١٠٢] ص ٩ اللمع تحقيق د. عبد الحليم محمود و أخر.

ساقط من اصل المصور

ساقط من اصل المصور

ساقط من اصل المصور

ساقط من اصل المصور

ساقط من اصل المصور

ساقط من اصل المصور

الفضيل بن عياض

"لو زهد العلماء في الدنيا خضع لهم الجبابرة"

قال الفضل بن الربيع لتلاميذه في مسجد الكوفة، سأحدثكم اليوم بحديث أحب أن تحفظوه مع أورادكم، و أن تعلموه لأبنائكم، و أن تهادو به من تحبون من إخوانكم، فيه و بأمثاله تحيا القلوب، و تشرق الأرواح. و حديثى إليكم كنت أحد من شاركوا فيه و ساهموا، و لكنني و الرواية أمانة، لم أكن بطله و لا صانعه. كان ذلك منذ سنوات، و كان هارون الرشيد قد وجه إلى البرامكة ضربته الصاعقة، فأطفأ أنوارهم ، و حطم سلطانهم، و أستأصل شأفتهم. كانوا مع كل ما نسب إليهم، زهرة ملكه، و عنوان مجده، و أصحاب سره و وده.

و لقد حزن الرشيد عليهم حزناً كاد أن يذهب بعقله، و لم أره بعد نكبتهم باسماً أو مبتهجاً.

لقد تركت مأساتهم سحباً سوداء في قلب الرشيد، فلم يهنأ بطعام و لم يسعد بنوم، و كان يمضى الليالى المتتابعات فى أرق عنيف ثائر.

و كنت بمنزلى ذات يوم، و قد خلعت ثيابى، و تهيأت لمنامى، فإذا بقرع شديد على بابى، فقلت فى قلق من هذا!؟ فإذا بالرشيد، قائماً على بابى، و فى وجهه تجهم حزين، و هم دفين، فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلىّ أتيتك. فقال ويحك، قد حاك فى نفسى شىء أطار النوم من أجفانى، و أزعج وجدانى، شىء لا يذهب به إلا عالم تقى فى زهادك، فانظر لى رجلا

أسأله. فقلت: ها هنا سفيان بن عيينة، فقال: إمض بنا إليه، فأتيناه فقرعت عليه الباب، فقال من هذا، فقلت أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً، فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك، فقال جدلنا ما جئنا له، فحادثه ساعة ثم قال له، عليك دين؟

قال: نعم قال: يا عباس أقض دينه، ثم انصرفنا، فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً فانظر ليّ رجل أسأله، فقلت، ها هنا عبد الرازق بن همام فقال: إمض بنا إليه نسأله، فأتيناه فقرعت عليه الباب، فقال: من هذا؟ فقلت أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك فقال جدلنا ما جئتنا إليه، فحادثه ساعة ثم قال له: عليك دين، فقال: نعم فقال: يا عباس أقض دينه، ثم انصرفنا، فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر ليّ رجلاً أسأله، فقلت ها هنا الفضيل بن عياض فقال الرشيد أمض بنا إليه فأتيناه، و إذا هو قائم يصلي في غرفته و هو يقرأ قوله تعالى: (أم حسب الذين احترفوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون)

فقال الرشيد: إن انتفعنا بشيء فبهذا، فقرعت الباب فقال من هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: مالي و لأمير المؤمنين فقلت: سبحان الله أما عليك طاعته؟ فقال: أوليس قد روىّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:"ليس للمؤمن أن يذل نفسه" فنزل ففتح الباب ثم ارتقى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال، أوآه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى. قال: فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي.

ب: خذ فيما جئناك له يرحمك الله، قال: و فيما جئت. وقد حملت على نفسك ذنوب الرعية التى سمتها هوانا، و جميع من معك من بطانتك و ولاتك تضاف ذنوبهم إلى ذنوبك يوم الحساب، فبك نغوا، و بك جاروا و هم مع هذا أبغض الناس لك و أسرعهم فرارا منك يوم الحساب. حتى لو سألتهم يوم انكشاف الغطاء عنك و عنهم أن يحملوا عنك شقصا[110] من ذنب ما فعلوه، و لكن أشدهم حبا لك أشدهم هربا منك، ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله و محمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم: إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على فعد الخلافة بلاء و عددتها أنت و أصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبد الله إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا. وليكن إفطارك هو الموت.

و قال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبا و أوسطهم عندك أخا و أصغرهم عندك ابنا، فوقر أباك، و أكرم أخاك و تحين على ولدك[111].

و قال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك. و أكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت و إنى أقول لك يا هارون: إنى أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله من يشير بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشى عليه. قال الفضل، فقلت: ارق بأمير المؤمنين، فقال: تقتله أنت و أصحابك أرفق به أنا؟.

---

(110) جزءا.

(111) ص١٤١ و ما بعدها صه سرور من أعلام التصوف الاسلامى.

ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله. فقال له: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه. فكتب إليه يا أخي أذكرك بسهر أهل النار في النار. مع خلود الأبد و إياك أن ينصرف بك من عند الله عز وجل فيكون أخر العهد و انقطاع الرجاء فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية ألقى الله عز و جل.

قال: فبكى هارون بكاء شديدا ثم قال له: زدني يرحمك الله. فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى صلى الله عليه وسلم جاء إلى النبي فقال يا رسول الله أمرني على إمارة، فقال له يا عم، إن الإمارة حسرة و ندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا يكون أميرا فافعل.

فبكى هارون بكاء شديداً. وقال له: هل عليك دين ؟ فقال نعم يا حسن الوجه أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه فافعل، و إياك أن تصبح أو تمسي و في قلبك غش لأحد من رعيتك. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:"من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة".

فبكى هارون بكاء شديدا ثم قال : هل عليك دين؟ فقال نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني و الويل لي إن ناقشني و الويل لي إن لم ألهم حجتي:

قال الرشيد إنما أعني دين العباد، قال الفضيل: إن ربي لم يأمرني بهذا، و قد قال الله عز وجل."و ما خلقت الجن و لإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق و ما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين".

فقال له الرشيد: هذه ألف دينار خذها و أنفقها على عيالك، و تقوى بها على عبادتك، فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة و أنت

افقنى بمثل هذا؟ سلمك الله و وفقك، ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجا من
ده فقال هارون: إذا دللتنلى على رجل فدلنى على مثل هذا، هذا سيد
المسلمين اليوم[١١٣].

ثم إن امرأة الفضيل دخلت عليه و قد سمعت الحوار بينه و بين الرشيد
فقالت، يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال
ففرجنا به؟

فقال إنما مثلى و مثلكى كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر
نحروه و أكلوا لحمه، موتوا يأهلى جوعاً و لا تذبحوا فضيلا. فلما سمع
الرشيد ذلك قال: ادخل لعلهم يقبلوا المال. قال: فدخلنا فلما سمع بنا
فضيل خرج و جلس على التراب على السطح فجاء هارون الرشيد إلى
جانبه فجعل يكلمه فلا يجيبه. فبينما نحن كذلك، إذا خرجت جارية
سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف يرحمك الله.
فانصرفنا.

أطرق الفضيل برأسه و قد أخذته نشوة الذكرى، ثم رفع وجهه و قال رحم
الله الفضيل أستاذنا لقد زهد فى الدنيا زهداً لم أره سواه، و كافأه الله
فسعت إليه الدنيا المتذللة طائعة فاعرض عنها و ازدهارها و لم يسمح لفتنتها
أن تطرق قلبه، أو تدخل بابه، لقد أثبت أن أهل الله هم الأعلون و هم
السادة حتى على الملوك و الخلفاء.

لقد رأيت هارون خليفة الدنيا و جبار بنى الإنسان بجواره ذليلاً ضعيعاً ضئيلاً
أشبه بذلة الدبيا و ضعفها و ضلآلتها أمام أولياء الله و أحبائه و عباده.

---

[١١٣] الفتوحات المكية ٤ ص ٤ ٨٦.

و لقد كان أمر الفضيل كله يثير العجب، بل لعل بدايته أغرب و أعجب من نهايته، فإذا كان الخليفة قد سعى إليه و جلس على التراب إلى جواره متلطفاً متودداً حتى تأتي جارية سوداء فتأمره بالإنصراف لأن الشيخ لا يريده و لا يرغب في بقائه، و ينصرف الخليفة في هوان و استخذاء، طوعاً لأمر جارية سوداء، و رهبة في غضب شيخها.

فإن هذا الشيخ كان منذ سنوات إنسان ضائعاً مشرداً تطارده فرسان الخلافة العباسية، و يترصده شرطتها، و تقعد له بكل مرصد سيوفها. لقد كان الفضيل في شبابه الباكر من الفتاك الثائرين، كان رهبة البوادي، و رعب الحواضر.

لقد نشأ في بني تميم القبيلة الثائرة[١١٣] التي أنجبت فرسان الخوارج و أبطالهم فلما دالت شوكتهم احترف الفضيل قطع الطرق، و السطو على القوافل، و الإخلال بالأمن في كل بقعة تتردد فيه خطواته. و ملأ الفضيل العراق خوفاً و رعباً، و رصدت الخلافة الغاضبة الموتورة لرأسه ثمناً و غالت في الثمن و لكن الفضيل أعجز مطارديه و نجا من كل الشباك التي نصبت له و أحكمت. لقد كانت العناية الإلهية تعده لشيء آخر، تعده ليكون عنوانا من عناوين الرحمة، و دليلا حيا ناطقا على أنه لا ييأس من روح الله أحد، و

---

[١١٣] جاء في طبقات الصوفية للإمام السلمي. قال: سمعت أبا محمد السمرقندي يقول: سمعت السراج يقول: سمعت الجوهري يقول: حدثني أبو عبيدة ين الفضيل بت عياض قال: "أني فضيل بن عياض بن مسعود بن بصر يكنى بأبي علي، من بني تميم من بني يربوع من أنفسهم و لد بسمرقند و نشأ بأبيوره، و الأصل من الكوفة.

لا بقنط من هداه إنسان مهما عظمت ذوانبه. و أن باب التوبة الصادقة محجة هادية، قد أبيحت لكل طارق و تهيأت لكل سائل و قاصد.

و أن الصعود من الحضيض إلى القمم، و من الوحل إلى النور، و من الضلال إلى الهدى سنة خالدة، رحمة من الله سابقة سابغة، يكفى فيها القلب المخبث، و معزم الصادق، و الإنابة الحارة الصاعدة.

و إذا أراد الله سبحانه بعبد من عباده خيراً هيأ أسبابه، و يسر سبله، و قد يكون السبب كلمة عابرة، أو حادثة طارئة، أو لفتة مشرقة ملهمة، سيان كان هذا أو ذاك، فالسر كل السر فى السبب، و إنما فى المسبب، سبحان المنعم المتفضل الذى يصطفى من عباده من يشاء، و يهدى إليه من يحب و يختار.

روى الإمام القشيرى فى رسالته عن الفضل بن موسى قال: "كان الفضيل شاطرا يقطع الطريق بن أبيورد و سرخس، و كان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو-ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله-فكأنما شك السهم فؤاده، فدمعت عيناه و وجف قلبه، و قال يارب قد آن. فرجع فآواه الليل إلى خربه فإذا فيها رفقه قد قطعهم الليل، فقال بعضهم: نرتحل، و قال قوم: حتى نصبح فإذا فضيلاً على الطريق يقطع علينا، و هو رجل نزع الله الرحمة من فلبه، فكأنما شك السهم مرة ثانية فؤاده، فبكى ثم كشف عن نفسه لهم و أمنهم". و مشى الفضيل مع القافلة حتى أبلغهم مقصدهم ثم ودعهم و أعتزم أن يلجأ إلى

الله جل جلاله الرحيم الكريم فـي حرمه المقدس نـاذراً نفسه للتكفير عما قدمت يداه.

و اعتسف الفضيل الطريق ينشد مكة المكرمة حيث بيت الله الحرام و من دخاه كان آمنـاً، و هـو يملأ وجوده بكاءً و استغفاراً و تضرعاً، و كلما تذكر ماضيه خيل إليه أن الله سبحانه و تعالى لن يقبله في [illegible] الرحمة و الهدى. فلما أشرف على مكة و لاح سناها، كأن أول صوت طرق مسمعه قارىء يتلو من كتاب الله

"قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم و أنيبوا إلى ربكم و أسلموا له". فاستبشر الفضيل و فاضت به نشوة مطمئنة، و وقع في إلهامه أن الله سبحانه قد أرسل إليه عم آياته رسالة بقبوله و العفو عنه، فأتبل على ربه فرحاً متطهراً متبتلاً منيباً. لم يترك بقعة أذنب فتها ذنباً إلا و ملأها سجوداً و استغفاراً، و سعى إلى كل من مسه بسوء مسترحماً متوسلاً مسترضياً له.

قال السلمى. "كان إذا صلى العشاء انتصب للصلاة إلى الفجر و هو يبكى" و يقول فريد الدين العطار في تذكرة الأولياء: "كان سيد العباد و إمام الأتقياء و دليل الأصفياء".

و أنبتت الطاعة أزهارها فانقلبت الثورة الغضوب الجامحة المتمردة إلى مثالية خلقية زكية صافية تلهم و ترشد إلى الأفق الأعلى، حتى ليقول صاحب بستان العارفين: "لم يكن في عصره من يطاوله في خلقه". و أثمرت التقوى ثمرتها فغدا الفضيل إماماً ربانياً في المعرفه و قطباً علمياً

يسعى إليه العلماء، و تتلمذ على يديه صفوة الأذكياء، و تنجب مدرسته أعلام الواصلين و السالكين، و لقب بشيخ الحرم و مرشد الهداة، فتفتحت فيه و تمثلت الآية القرآنية "و اتقوا الله و يعلمكم الله" يقول الغزالي: "كان الفضيل غصناً مثمراً في شجرة التقوى".

و تقوى الله عند الصوفية هي المعراج الموصل إلى المنح الإلهية، و المعرفة اللدنية يقول الفضيل "من جلس مع صاحب بدعة لم يعطى الحكمة و يقول: لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام و لا صلاة، و إنما أدرك بسخاء الأنفس، و سلامة الصدر و النصح للأمة".

عن إسماعيل بن يزيد قال: حدثنا إبراهيم قال: سألت الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: أن تخضع للحق و تنقاض له، و تقبل الحق من كل من تسمعه منه".

و يقول الفضيل: "جعل الشر كله في بيت و جعل مفتاحه الرغبة في الدنيا، و جعل الخير كله في بيت، و جعل مفتاحه الزهد في الدنيا". و يقول: "لو زهد العلماء في الدنيا خضعت لهم الجبابرة" و يقول: "لا ينبغي لحمل القرآن أن يكون له إلى خلق حاجة لا إلى الخلفاء فمن دونهم، ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم إليه". و يقول: "ترك العمل للناس رياء، و العمل لأجلهم شرك" و يقول: "لو قيل لي أمير المؤمنين داخل عليك فسويت لحيتي خفت أن أكتب في جريدة المنافقين".

قال العكبري: "سمعت الفضيل يقول: ثلاث خصال تقسي القلب، كثرة الأكل، و كثرة النوم، و كثرة الكلام".

و يقول إبراهيم: سمعت الفضيل يقول: "عامل الله بالصدق في السر فإن الرفيع من رفعه الله، و إذا أحب الله عبداً أسكن محبته قلوب خلقه و قال: "من خاف الله لم يضره شيء، و من خاف غيره لم ينفعه شيء" "يهابك الخلق على قدر هيبتك لله". و دخل عليه قوم فقال: ممن؟ قالوا من خرسان قال: "اتقوا الله و كونوا من حيث شئتم و اعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله و كانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين".

و رأى رجلا مغموماً فقال له أتخشى أن يكون لك رزق لا تستوفيه؟ قال لا، قال: أتخشى أن يكون غير ما شاء الله؟ قال: لا، قال: فلأي شيء غمك.

قال الذهبي: "كان سيداً عابداً ورعاً زاهداً إماماً ربانياً فقيهاً محدثاً أضاء الدنيا". و يقول المناوي: "كان إماماً ربانياً صمدانياً قانتاً زاهداً عظيم الشأن شديد الخوف دائم الفكر". و يقول بن المبارك: "ما بقي على ظهر الأرض أفضل منه".

و أخرج ابن عساكر عن بعض المكيين قال: رأيت سعد بن سالم القداح في النوم فقلت: من أفضل من في هذه المقبرة؟ قال صاحب هذا القبر قلت

بما فضلهم؟ قال: ابتلى فصبر، قلت ما فعل فضيل؟ قال: هيهات أن يلحق به أحد كسى حلة لا تقوم له الدنيا بحواشيها"[114].

أبو الحسن الشاذلي

جاء الدين الإسلامى بتعاليم جديدة لصالح المجتمع و لصلاح الفرد، و هذه التكاليف يتبين من أسمها: أن فيها شيئا من المشقة على هؤلاء الذين لم يتذوقوا الصلة بالله. و لما فى التكاليف من مشقة حاول كثيرون التخلص منها بشتى الوسائل أو التأويلات المنحرفة. و من أضل هذه الوسائل ما يزعمه البعض من أنه وصل من الصلة بالله، إلى رفع التكاليف عنه، و تلك خدعة شيطانية، و قد حاربها أئمة التصوف فى مختلف العصور حربا لا هوادة فيها، و من هؤلاء الذين حاربوا بشدة: أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه، كان باستمرار يأمر و يحث على اتباع الكتاب و السنة، و يبين أن الانحراف عنهما اتباع للشيطان، يقول رضى الله عنه: ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان و متابعة السنة، فمن أعطاها و جعل يشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ فى العلم و العمل بالصواب. كمن أكرم بشهود الملك على نعمة الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا.

---

(114) انتقل إلى جوار ربه رضى الله عنه فى المحرم سنة سبة و ثمانون و مائة و هو فى الستين من عمره.

و يقول: إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة فلا تعبأ به، هذا من شأن السالك. أما من يتصدى للدعوة قال: "من دعى إلى الله تعالى بغير ما دعى به رسول الله صلى الله عليه و سلمن فهو بدعي" على حد تعبير أبو الحسن.

و لكل وقت عمله المحدد، و لكل عمل زمنه المعين . المتابعة الحقة تقتضي: ألا تؤخر الأعمال عن أزمانها، يقول أبو الحسن: "لا تؤخر طاعات وقت لوقت آخر فتعاقب بفواتها، أو فوات غيرهان أو مثلها، جزاء لما ضيع من ذلك الوقت. فإن لكل وقت سهما، فحق العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية".

و أما تأخير عمر رضى الله عنه الوتر إلى آخر الليل فتلك عادة جارية، و سنة ثابتة ألزمه الله تعالى إياها مع المحافظة عليها. و أنى لك بها مع الميل إلى الراحات، و الركون إلى الشهوات، و الغفلة من المشاهدات؟ فهيهات هيهات.

و كثير من الناس يجد شهوة فاسدة في أنماط من العلم منحرفة يعكف عليها فتصرفه بالكلية عن كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه و سلم، و تصبح حجابا بينه و بين الله، و إلى هؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجة ينصح الشاذلي: "كل علم تسبق إليك فهو الخواطر، و تميل إليه النفس، و تلتذ به الطبيعة، فارم به و إن كان حقا، وخذ بعلم الله الذى أنزله على رسوله، و أقتد به و بالخلفاء و الصحابة و التابعين من بعده و بالأئمة الهداة

المبرئين عن الهوى و متابعته، تسلم من الشكوك، و الظنون، و الأوهام، و الدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدم و حقائقه".

وفى الناس من يزعم أنه وصل فى المحبة إلى درجة تغنيه عن اتباع التكاليف، و إلى هؤلاء يقول: سمعت هاتفا يقول: إن أردت كرامتى فعليك بطاعتى، و بالإعراض عن معصيتى.

و الطريقة المثلى هى أنه[115] "إذا عارض كشفك الكتاب و السنة فتمسك بالكتاب و السنة و دع الكشف و قل لنفسك: أن الله تعالى قد ضمن العصمة فى الكتاب و السنة، و لم يضمنها لى فى جانب الكشف و لا الإلهام، و لا المشاهدة، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغى العمل بالكشف، و لا الإلهام، و لا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب و السنة".

و النتيجة التى يريد أن يتوصل إليها تتمثل فيما يلى: "ارجع عن منازعة ربك تكن موحدا، و أعمل بأركان الشرع تكن سنيا، و اجمع بينهما تكن محققا".

يقول ابن عطاء الله السكندرى هعبرا عن رأى المدرسة الشاذلية: "و إذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن إقامة دليل: فالمكون أولى بغناه عن الدليل منهما"[116] اه. و هذه الفكرة إنما هى عودة إلى الطريق

---

[115] ص ٨٧ و ما بعدها د. عبد الحليم محمود، أبو الحسن الشاذلى.

[116] لطائف المنن ص ٢٧ الطبعة الفرنسية.

الصواب فيما يتعلق بما سماه المتكلمون "إثبات وجود الله". و هى فكرة وجه إليها الشيخ أبو الحسن مريديه أكثر من مرة، فهو يقول: "كيف يعرف بالمعرف من به عرفت المعارف، أم كيف يعرف بشىء من سبق وجوده وجود كل شىء"[117]. و يقول أيضا: "إنا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان فأغنانا ذلك عن الدليل و البرهان، و إنا لا نرى أحد من الخلق، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق؟ و إن كان و لا بد فكالهباء فى الهواء، إن فتشته لم تجده شيئا" اه. و يتابع أبو الحسن الحديث فيقول: و من أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المظهر له؟. و يقول: و كيف تكون الكائنات مظهرة له، و هو الذى أظهرها أو معرفة له و هو الذى عرفها.

هذا الاتجاه الذى علمه أبو الحسن لتلاميذه و نشره بينهم، أخذ بن عطاء الله السكندرى فى إذاعته و كتابه على أنحاء شتى، فمن ذلك قوله: "و أرباب الدليل و البرهان عموم عند أهل الشهود و العيان لأن أهل الشهود و العيان قدسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه. و كيف يحتاج إلى دليل من نصب الدليل، و كيف يكون معروفا به و هو المعروف له" اه.

إن أبا الحسن عاد باتباعه إلى النهج الإسلامى الصادق فيما يتعلق بوجود الله، إن وجوده سبحانه أوضح و أظهر من أن يحتاج إلى دليل و أن

---

(117) لطائف المنن ص ٢٦ الطبعة الفرنسية.

تقديس الله سبحانه ينأى بالمؤمن عن أن يتخيل-مجرد تخيل-أن الله يحتاج إلى إثبات وجوده. و أن جلال الله-و هو جزء من عقيدة المؤمن-يسمو بالمؤمن عن أن ينزل إلى هذا المستوى من الانحراف.

و الواقع أن كل محاولة لإثبات وجود الله إنما هي انحراف عن النهج الإسلامي السليم. و إذا كان أبو الحسن قد وجه أتباعه إلى هذا النهج، فإنما يتبع في ذلك المنهج القرآني و ذلك أن القرآن الكريم، و جميع الرسل، صلوات الله و سلامه عليهم، قد نزهوا الله عن أن يحاولوا الإستدلال على وجوده، و قدسوه عن أن يكون وجوده في حاجة إلى حجة أو برهان. و لقد سار الإمام الشاذلي على هذا النسق متبعا و مقتضيا.

بيد أن فكرته أصبحت الآن غامضة كل الغموض ذلك أن بدعة إثبات وجود الله بدعة سائدة حتى في الأوساط المستغرقة في التدين و من أجل ذلك يتساءل الكثيرون: أكان أبو الحسن محقا في رأيه هذا؟ و من أجل إيضاح فكرة أبو الحسن، و لأن الموضوع في نفسه جدير إلى حد بعيد بالاهتمام: فإننا نستفيض هنا من شرح هذا الموضوع عسى أن يسود توجيه أبي الحسن فيرجع الناس عن البدعة إلى التوجيه السليم-علاا أن من حق أبي الحسن علينا-و نحن نكتب عنه-أن نستفيض من شرح فكرة من أفكاره، كان للعادة و الالف، و كان للزمن و الظروف دخل في أن أصبحت غير مفهومة فهما واضحا، أو غير مقدرة تقديرا صحيحا

حين بدأ الرسول صلى الله عليه و سلم، الجهر بدعوته، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها فإنه صلى الله عليه و سلم، لم يبتدأ بإثبات وجود

الله، و إنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو، و تحدى العرب بصدقه. و من قبل ذلك: حين فاجأه الملك فى الغار و نزل الوحى، لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحى: بإثبات وجود الله، و إنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول صلى الله عليه و سلم، باسم ربه: "أقرأ ناسم ربك الذى خلق" و مضى القرن الأول كله و لم يحاول إنسان قط أن يتحدث حديثا عابرا أو مستفيضا عن إثبات وجود الله تعالى، و مضى أكثر القرن الثانى و المسألة-فيما يتعلق بوجود الله-لا توضع موضع البحث، ذلك أن وجود الله إنما هو أمر بديهى لا ينبغى أن يتحدث فيه المؤمنون نفيا أو إثباتا، و لا سلبا أو إيجابا. إن وجود الله من القضايا المسلمة التى لا توضع فى الأوساط الدينية موضع البحث لأنها فطرية، و إن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص فى إيمانه دخل، و فى دينه انحراف، فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبته البشر، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، و من المعروف ان الدين الإسلامى لم يجىء لإثبات وجود الله، و إنما جاء لتوحيد الله، و إذا تصفحت القرآن، أو التوراة حتى فى وضعها الحالى، أو الإنجيل حتى فى وضعه الراهن، فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت فى أى سفر منها مكانة تجعلها هدفا من الأهداف الدينية، أو احتلت مكانا يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

و القرآن الكريم يتحدث عن بداهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة حيث يقول سبحانه و تعالى: "و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولن الله" إنهم يقولون أن الخالق هو الله، مع أنهم مشركون أو متحرفونبوجه من الوجوه، فى إيمانهم بالله تعالى؛ و ما نزلت الأديان قط

لإثبات وجود الله و إنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله أو لتصحيح طريق التوحيد.

أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود فليست من ذلك في قليل و لا في كثير، إنها تبين عظمة الله و جلاله و كبرياءه و هيمنته الكاملة على العالم، ما عظم من أمره و دق منه، لا تفوت هيمنته صغيرة و لا يخرج من سلطانه ما دق و ما جل. و قد أتت على هذا الوضع، لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله، إسلاما كاملا بحيث لا يصدر و لا يرد إلا باسمه سبحانه، و لا يأتي ما يأتي أو يدع ما يدع إلا في سبيله تعالى.

و مضى القرن الأول على ذلك، و مضى القرن الثاني أو أكثره على الفطرة، ثم ... ثم كانت الفلسفة اليونانية. و الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي، و كل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة، اى في عالم العقيدة إنما هي فكرة وثنية، أي أنها فكرة لا حق لها في الوجود، لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله بينه على لسان رسله؛ و كل تدخل من الإنسان في هذا العالم إنما هو تدخل فيما ليس للإنسان التدخل فيه، لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة لا ينبغي أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاضع الخاشع المسلم بما جاء به الوحي الإلهي.

إن الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة فلسفة وثنية، إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله، و لا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية؛ إنها

وثنية بالمبدأ الذى قامت عليه، و هو مبدأ تأليه العقل البشرى، و يستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته[118].

و هي حينما تثبت وجود الله عقليا، ليس في ذلك كبير فائدة، و لا يبرر عن وجودها، و لا قيمة ما تثبته، و اثباتها و العدم سواء؛ ذلك أن العقل الذى أثبت: هو العقل الذى يمكنه أن ينكر، و هو العقل الذى ينكر بالفعل.

و لا لزوم أذن للطنطنة و التصفيق الذى نحى به كل عبقرية فكرية فى الشرق أو الغرب تحاول فكريا أن تثبت وجود الله. إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشرى مهما كان هذا الفكر عبقريا، و يجب على المؤمن أن لا يقيم وزنا-أى وزن-لأى نتاج فكرى فى علم ما وراء الطبيعة، سواء أخالف معتقده أم وافقه، إنه فى معتقده يدين لله وحده، و كفى بالله مصدرا، و كفى بالله هاديا، و كفى بالله مرشدا، و من يعتصم بالله فقد هدى إلى سراط مستقيم، و من يعتصم بالله فهو حسبه. إن كل ما عدا الهدى الإلهى فى عالم الدين إنما هو وثنية و ضلال.

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية، و قد أرادت أن تجد لجاما يعصمها من الخطأ فاخترعت فنا وثنيا آخر، هو فن المنطق، فما أجدى و لا أغنى، و لا تقدم بالفكر الوثنى فى عالم الصواب شروى نقير. و بقت هذه الفلسفة-عبر القرون-على ما هى عليه، فيها كل سمات الوثنية من ضلال و خرافات.

---

(118) ص ٩٣ و ما يليها د. عبد الحليم محمود-أبو الحسن الشاذلى.

و لقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر، فما كان في ربوعها دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة، و ما كان مثلها في ذلك إلا كمثل العصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية؛ فلجأت إلى العقل و ألهته، و أخذت تثبت به و تنكر، فضلت و أضلت.

و جاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع، فعزلت فكرة الألوهية عن تدنيس الوثنية، و سمت بالله جل جلاله عن أن تضع وجودة موضع البحث، ثم تسللت إليها-كمكروب خبيث-وثنية اليونان، فجعلت من وجود الله-مجرد وجود الله-بابا ضخما من أبواب البحث، أو من أبواب اللاهوت الكنسي، و نزلت بذلك الفكرة الدينية المقدسة عن الله، إلى مستوى الجو الوثني البشري.

و جاء الإسلام تطهيرا كاملا للعقيدة و تزكية تامة للإيمان، و أعلن بمجرد التسمية "الإسلام" الحرب على التدخل البشري في دين الله و رسالته. فما "الإسلام" إلا الاستسلام المطلق لله سبحانه و تعالى، إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه، و هل للإنسان غير هذا بالنسبة لله، و هل للمؤمن أن يتصرف تصرفا آخر؟ و هل إذا تصرف تصرفا آخر يسمى مؤمنا؟ إن الاسترسال مع الله على ما يحب، هو الإسلام، و هو الدين، لا دين غيره، يقول الله تعالى: "إن الدين عند الله الإسلام"، ويقول سبحانه: "و من يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه". و إن كان من لا يستسلم لله في وجيه استسلاما مطلقا فإنه ينبغي-في قليل أو في كثير حسب انحرافه-غير الإسلام دينا. و لقد كان الإسلام توجيها، و كان مبادىء.

و من توجيه الإسلام: أن وجود الله ينبغى أن يوضع موضع البحث، و كل من وضعه موضع البحث فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشرى، إنه يبتغى غير الإسلام موجها؟.

و ابتغى المسلمون الأول الإسلام توجيها، كما ابتغوه مبادىء، و سار الأمر على ذلك إلى أن تسللت الفلسفة اليونانية-كمكروب خبيث-إلى الجو الإسلامى تسللت فى عهد المأمون، و تولى كبر هذا التسلل المأمون، و شجعه على ذلك معتزلة عصره، و قابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور، و حق لهم ذلك، فما كان منطق الدين و لا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة، راية الدين الإلهى مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية فى محيط العقيدة، فنميل بهذه الراية، قليلا أو كثيرا، لنرفع بجوارها راية أرسطو، أو راية أبيقور.

و رفع المأمون راية الانحراف و الوثنية بجوار راية الهداية المعصومة. و عارض المؤمنون و احتجوا و بينوا أن الوثنية، و لو وافقت الدين فهى وثنية. و لكن النهج الوثنى أخذ يقوى شيئا فشيئا، ثم طلب التصريح بالإقامة و استوطن.

و معاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى-الإيمان بالله و بالرسالة و بالبعث-قد تلوثت بالوثنية، كلا، و إنما الذى تلوث بالوثنية-و إلى حد كبير-إنما هو النهج و النزعة و الاتجاه فى البحث و منهج البحث. و ليس

ذلك بالأمر الهين، أو الذى لا يؤبه له كلا فذلك له خطورته فى جانب قوة الإيمان و ضعفه.

و فرق أن تأخذ قضايا الوحى مأخذ المستسلم، المسترسل معها ما تريد، و أن تأخذها محكما فيها عقلك مؤولا لها أو عادلا بها إلى اتجاه خاص، أو شارحا لها على نزعة معينة. و بتعبير آخر: فرق أن تصدر عن الوحى متفهما له بعقلك، و بين أن تصدر عن عقلك متفهما للوحى، و لعل بعض الناس فرقا فى التعبيرين، و لكن الفرق كبير، إذا نظرنا إلى الوضع الإنسانى: فهو إما أن ينطلق عن الوحى قائدا العقل إلى الخضوع له، و إما أن ينطلق عن العقل محاولا تأويل الوحى بما يوافق النتائج التى وصل إليها العقل.

و الأول طريق المؤمنين المسلمين، و الثانى طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين. و النهج الوثنى-نهج إثبات وجود الله-هو الذى أتاح الانحراف الكامل، أى إنكار وجود الله، فما كان النهج الوثنى قد أعطى حق الوجود فإن الوثنية-كمنهج-تأتى بالوثنية كنتائج.

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث هو الذى هيأ لذوى الفطر المنحرفة أن يلحدوا فى دين الله، وأن يكفروا به سبحانه و هذه نتيجة أولى. أما النتيجة الثانية فإنها ضعف الإيمان، و إذا كانت تضع الوجود الإلهى-مجرد الوجود-موضع بحث: فمعنى ذلك أنك وضعته موضع شك و ريبة، و لو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث.

و إذا كان الوجود الإلهى-مجرد الوجود-موضع شك و ريبة فماذا بقى من أمور الدين لا يوضع موضع شك و ريبة؟ إن الإيمان فى هذه الأوضاع الوثنية: لا يتأتى له إلا أن يخبو شيئا فشيئا حتى يصبح كالإيمان.

و هذا هو ما حدث فى الأمة الإسلامية: لقد وصل إيمانها إلى درجة يكاد معها أن يكون معدوما. و ما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثنى فى بحث قضايا الدين و مبادئه، لقد أصبحت قضايا الدين، كل قضاياه، موضع بحث، و هل يتأتى أن تبقى قضية من قضايا الدين فى مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله-مجرد وجوده-موضع البحث؟. نستغفرك اللهم و نتوب إليك. و نعود فنقول: إن الدين فى نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز: "إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون".

و لكن الذى نشكو منه إنما هو النهج، أو المنهج، أو النزعة، أو الاتجاه فى البحث، إن الذى نشكو منه إنما هو: منهج البحث الوثنى. و إذا شئت قلت: إنما هو منهج البحث اليونانى.

سئل أحد العارفين عن الدليل على الله فقال: الله، فقيل له فما العقل؟ فقال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله. أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى الذى جمع بين رئاسة الشرعية، و رئاسة الحقيقة فإنه يقول: "إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقرا إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، و متى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك".

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، و هو الذى أظهر كل شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، و هو الذى ظهر بكل شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، و هو الذى ظهر فى كل شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، و هو الظاهر قبل وجود كل شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، و هو أظهر كل شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، و هو الواحد الذى ليس معه شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، و هو أقرب إليك من كل شيء"

"كيف يتصور أن يحجبه شيء، و لولاه ما كان وجود شيء"

"شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله، فأثبت الأمر من وجود أصله، و الاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، و إلا متى غاب حتى يستدل عليه، و متى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه".

رحم الله أبا الحسن و جزاه الله و مدرسته خير الجزاء على هذا التوجيه السليم.

حجة الاسلام الغزالى

طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا لله : تلك كلمة قالها الغزالى الذى شهد القرن الخامس الهجرى مولده عام ـ ٤٥٠هـ فى بلده طوس من اسرة فقيرة كانت تقطن بلدة تسمى غزالة حيث اشتهرت بالفقه فكان عم حمد ابن محمد الغزالى من كبار فقهاء عصره وكان كذلك ابن عمه اما والده فكان يعيش من كسب يده كان كما يقول السبكى فى طبقاته يغزل الصوف ويبيعه فى دكانه بطوس فلما حضرته الوفاة أوصى به وباخيه احمد الى صديق متصوف واعطاه ما ادخره من مال يسير قائلا :

(ان لى لتأسفا عظيما على عدم تعلم الخط واشتهى استدراك مافاتنى فى ولدى هذين) .

كان والد الغزالى اذن يعمل فى صناعة الصوف وكان مع ذلك محبا لعلماء الدين يتمنى أن يرزقه الله بولد يصبح عالما مع العلماء ، وفقيها مع الفقهاء ولكن ها هو الموت يعاجله ولم تكتمل أمنيته ولذا فانه وهو على فراش الموت يوصى هذا الصديق الصالح أن يرعى ولديه وأن يحقق أمنيته من بعده فى تعليمهما والأخذ بيدهما نحو الرشاد . وها هو الصديق يعمل جاهدا على حسن

تربيتهما والذهاب بهما الى احدى مدارس طوس الشهيرة وبعد أن ـ
استوعب احد الاخوين (الغزالى) العلوم التى كانت تدرس فى هذه
المدرسه ارتحل الى جرجان ثم الى نيسابور حيث امام الحرمين (ضياء
الدين الجوينى) رئيس المدرسة النظامية اذ ذاك وقد ظل الغزالى
فى رعايته يدرس الفقة والاصول والمنطق والكلام حتى كان السوعه
هو الفرق بينهما وحتى صار الغزالى (أنضر اهل زمانه) ولقد
اعترض اللصوص طريقة فى احدى رحلاته وجردوة من كل شئ ومن
اثمن شئ عنده من كتبه التى هجر اهله وترك بلده فى سبيلها
ولذلك ترى الغزالى يطلب من زعيم العصابة بل ويتوسل اليه أن ـ
يرد له كتبه وقد اشفق عليه زعيم العصابة وحقق له طلبه بعد أن ـ
سخر منه قائلا كيف تدعى العلم ؟ مادام يكفى للحيلولة بينك
وبين المعرفة اخذ هذه الكتب منك ، ولقد اعتبر الغزالى بقول
هذا اللص فاعتكف ثلاثة اعوام كاملة يدرس العلوم حتى استظهر كل
ماكتبه واصبح كما يقول لا قدره للص على سلبه منى .

ولقد اصبح الغزالى كما يقول رينان (لم تنتج الفلسفة ـ
العربية فكرا مبتكرا كالغزالى) ولذلك فقد وصلت شهرته العلمية
الى الوزير نظام الدولة الذى كان نصير للاشعرية آنذاك فعينه
استاذا بالمدرسة النظامية ببغداد وقد بلغ أوج مجده العلمى

هذه المدرسة حيث كان يحضر درسه ثلثمائة عمامة من اكابر العلماء ولاامر ما خرج منها هائماً على وجهه في الصحارى والقفار نحو تسع سنين عرج خلالها على بعض العواصم الاسلامية ثم عاد الى طوس حيث قاضت روحه في الرابع عشر من جمادى الثانية عام ٥٠٥هـ وكأنه يقول كما قال بيكون (ليدفن جسدى فى طى الخفاء اما اسمى فانى باعث به الى الاجيال المقبلة والى سائر الامم .

عصر الغـــزالى

نشأ الغزالى والعالم الاسلامى يموج بمختلف الاراء وشتى النزعات حيث تلاقت مع الثقافة الاسلامية الواسعة لقاح حضارات الامم ونتائج العقول وثمرات الافكار وسبحات الاخيلة واشراقات القلوب ماثلة فى كلمات الزهاد واشعاع الارواح فى اشارات الصوفية ونزعات الالحاد فى فلتات الزندقة ، وهدى الايمان ونسك التعبد وحيرة الشك وسفسطة الجدل ومنطق الفلسفة فى الجدل حول اصول الدين وتفلسف العقيدة فى عبارات المتكلمين والى جوار هذا كله فان الحياة الاجتماعية قد زخرت بجوانب اخرى فى محافل الخلافة والملك وانديه المترفين ، كل ذلك تلقاء القرن الخامس الهجرى — عصر الغزالى — وجد الغزالى نفسه وسط هذا البحر الزاخر من النظريات والمذاهب

والآراء بل والفرق أيضا وكل فريق يزعم انه الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون فهل يعتنق امرؤ حانئذ رأيا أو ينحاز الى مذهب أو ينضم الى فرقة دون بحث وفكر ونظر ؟ وعلى أي أساس ينحاز ؟ فكل منهم يقول ان الحق في جانبه وأن رأيه هو الصواب ولا شك أن اللجوء الى فريق دون فريق – دون بحث واقتناع – مجازفة وتقليد ولاسيما وأن هذا له علاقة بمستقبل الانسان الأخروي فلا بد والأمر كذلك من البحث والتفتيش واستعمال النقد الحر. وهذا ما قام به الغزالي الذي يقول :-

إن اختلاف الخلق في الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه الا الأقلون. ولذلك فان الغزالي أخذ في البحث الجاد وراء الحقيقة : يطلع على الآراء كل الآراء ويكتشف أسرار المذاهب كلها انه كما يقول أتفحص عن عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على باطنيته ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ولا زنديقا

معطلا الا واتحسس وراءه للتنبه لاسباب جراته فى تعطيله
وزندقته كان الغزالى يحس ظمأ ملحا الى الايمان بحقائق ثابتة
ترضى عقله وترضى قلبه وترضى روحه وترضى المثل العليا التى ينشدها
فى الحياة . ولذلك فقد جعل دراسته للعلوم وسيلة من وسائل
الاهتداء كما هى وسيلة من وسائل المعرفة ولذلك فقد اتجه الى
الفقه علة يجد فيه ضالته المنشودة - والفقه علم الاحكام والنظم
الاسلامية ولكن الرجل لم يجد فيه سكينة نفسه فلم يرض عن تلك
المجادلات اللفظية ولا تلك الاقيسة الجامدة ولم يحس بقلوب الفقهاء
تخفق بما كتبوا ولم يلمس ارواحهم ترفرف فيما دبجوا وهو يريد
شيئا يرضى الروح والقلب ومن هنا فقد ترك الغزالى الفقه واتجه الى
دراسة علم الكلام ليصل الى الله وليقنع نفسه بادلته ويرضى قلبه
بالحانه ونغمه وهو علم الشريعة وخلاصة فلسفتها وكنز مجدها ولكنه
وجد المتكلمين يذكرون الله وصفاته وكانهم يقيمون بناء هندسيا
او يجرون عملية من عمليات الحساب فى برودة الحاسبين وجمود
عواطفهم واحاسيسهم . لم يقتنع الغزالى ... بعلم الكلام فان
المتكلمين وان كانت غاية علمهم هى حفظ العقيدة من تشويش أهل
البدع الا أن أدلتهم لم تقع فى قلب الغزالى موقع الاطمئنان ولذلك
العقل
فانه ذهب الى الفلسفة وهى مفخرة البشرى ليرضى عقله بآرائها

ثم ترضى قلبه برموزها ولكن الفلسفة زادته شكا بافتراضاتها والغازها وبقية الوثنية السائرة في معارفها ولذلك كان الغزالي يوجه ضربه الى هذه الفلسفة جعلت منه بحق زعيما للمتكلمين .

يقول الدكتور ماكس مايرهوف :

ان الغزالي اكبر متكلم في الاسلام وهو الذى ساهم بأوفر نصيب في كفاح رجال اهل السنة ضد دراسة الفلسفة ومن بعد سلاح من عبقريته العظيمة ومنطقه الجلى الواضح لم يبق الا التصوف ورجاله الذين يقولون بالكشف والمعاينة والاتصال بعالم الملكوت والاخذ عنه مباشرة والاطلاع على اللوح المحفوظ وما يحتويه من اسرار . ولكن ما الطريق الى الكشف والمعاينة ؟ اجابوا بانها علم وعمل ومن هنا كان الغزالى ترك الجاه العريض وذهب يطبق على نفسه ما اشار عليه المتصوفة الذين يرون أن اساس طريقهم (قطع علائق القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وذلك لايتم الا كما يقول الغزالى — بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق . بل يصير قلبه الى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه) ولقد اطمأن الغزالى الى طريق الصوفية وسار على منهجهم حتى وصل الى حالة

(1) ص ١١ — ١٢ فى فلسفة ابن رشد للاستاذ الدكتور محمد عمارة .

يقول عنها (وانكشف لى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها والقدر الذى أذكره لينتفع به ، انى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا ، فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها — وهى أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة — استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله الى أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وهكذا اطمأن الغزالى الى التصوف ووجد فيه ضالته المنشودة وغايته المأمولة وطريقه المحبوب .

( ) ص ١٤٥ — ١٤٦ المنقذ من الضلال للغزالى : تعليق الدكتور عبد الحليم محمود .

أثر الغزالي في التصوف :

لقد كان لمنهج الغزالي [illegible] التصوف وأسلوبه الرائع ومذهبه الذي كان من العمق والدقة بحيث استوعب عصره الذي عاش فيه وسيطر على قلوب معاصريه وأثر فيمن جاء بعده من أهل السنة كان لهذا [illegible] أثر على التصوف ما لا يخفى على أحد حتى أصبح للتصوف [illegible] في الحياة الروحية الإسلا[illegible] بعد أن كان الكثيرون [illegible] أنفسهم بالابتعاد عنه والنفور من أهله وتوجيه الطعن [illegible] أهله وإلقاء الشبهات على تعاليمه فقد كان ينظر الى التصوف وقت[illegible] على أنه زندقة ، وخروج على تعاليم الكتاب والسنة ولم تكن هذه النظرة ناشئة عما كان يدعو اليه الصوفية من بعض التعاليم المنطوية على التحرر [illegible] ، وإنما هي ناشئة أيضا عما كان هنالك من امتزاج [illegible] تعاليم المذاهب الصوفية وبين بعض العقائد الشيعية [illegible] الباطنية وظل التصوف زمانا منظورا اليه هذه النظرة [illegible] الغزالي ، فإذا هو يدعو الناس الى الرجوع الى دينهم [illegible] ويرغبهم في التصوف ويبين لهم أن هذا هو الطريق الحق [illegible] الموصل الى معرفة الحق ، ولقد [illegible] الغزالي على أداء رسالته [illegible] كان يمتاز به من حرارة الايمان وبلاغة البيان وبراعة الاسلوب وقوة

الحجة ومانه أن التصوف فى حقيقته ليس تصوحا وانعزالا عن الناس (١)
وانقطاعا عن ركن الحياة وانما هو انطلاقة الى الكمال وفلسفة روحية
انسانية تقوم على اساس من مراقبة الله تعالى فى كل شئ ومحاسبة
النفس على كل شئ ومجاهدتها فى كل حال لتصفو من الشوائب
وتخلص من العلائق ومن ثم يسعد الانسان فى ذاته ويحظى بمحبة
الله ورضاه ويعيش فى كنفه رخاء ومحبا مع الآخرين على صدق واخلاص
وهذه ايجابية قيمة تدفع الانسان الى بناء الحياة (٢) • استمع الناس
الى الحان الغزالى فكأنهم يستمعون الى الحان جديدة تهبط من هدى
جديد ، جدد الغزالى للناس ايمان القلوب • ذلك الايمان
الصافى المتجه الى الله يدركه العلماء والحكماء والعامة • وبث فى
النفوس عقائد التوحيد الخالصة معطرة بعطر كأنه هبات الجنة ونفحات
النعيم وأضفى على الفكر الاسلامى نورا من المحبة والصفاء والاطمئنان
والتوجه الى الله توجها كاملا لا تشوبه رذيلة من رذائل الفكر
ولا ينقصه من نقائص القلب ولا جريمة من جرائم البدن ولا سيئة من
سيئات الاذى للناس •

---

(١) ص ١٢٥ الحياة الروحية فى الاسلام •
(٢) ص ٣٢٠ مناهج البحث الخلقى فى الفكر الاسلامى د • احمد الشاعر

لقد مزج الغزالى [illegible] بالعبادات ومزج أصول الشريعة بالتصوف وأطلق فى الناس دعوة مخدرا ساحرا يدعو الى ايمان بسيط سليم خال من التعقيد مجرد من التحسينات والافتراضات ايمان استسلام وعبادة وفناء فى الله ومحبة .(١)

نظرية المعرفة عند الغزالى :

وضع أبو حامد الغزالى نظريته فى المعرفة التى تتصل بها اتصالا وثيقا نظريته الاخرى فى السعادة .

فالمعرفة عند الغزالى هى كما جاءت فى كتابه القيم (احياء علوم الدين) هى معرفة الحضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات ! اذ ليس فى الوجود شئ سوى الله تعالى وأفعاله . والكون كله من أفعاله . ومن يتجلى للقلب من المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وصفاته الباقيات وأفعاله وحكمته فى خلق الدنيا والاخرة . و الجنة بعينها عند قوم وسبب استحقاق الجنة عند أهل الحق وعلى قدر ما تتسع معرفة الانسان بذلك كله تكون سعة نصيبه من الجنه . والناس ليسوا سواء عند الغزالى فهناك انسان عامى لم يتخلص بعد من قيود الحس يجب على هذا النوع الاكتفاء بالقرآن والسنة والا يتجاوز نصوص الكتاب الى الفلسفة . لان النظر العقلى فى أمور

(١) ص ١٤٤ من أعلام التصوف الاسلامى ج٢ عبد الباقى سرور

اليقين هو على حد تعبير الغزالي - بحر عظيم ينبغي الا يترك العلم. وهناك انسان آخر يأخذ نفسه بالتعلم والاستدلال ولكنه قد يقع في الشكوك . وهناك انسان ثالث لا يقف عند ظاهر النصوص ولا يقنعه النظر العقلي والاستدلال المنطقي وانما هو يتجاوزهما الى نوع آخر من العلم تقذفه الله في القلب وفيه يشهد الحق بنور اليقين . ومعنى هذا بعبارة من عبارات الغزالي نفسه ان للايمان او اليقين ثلاث مراتب هي : -

١ - ايمان العوام المستند الى الخبر وهؤلاء العوام يصدقون ما يخبرهم به اهل الثقة .

٢ - ايمان العلماء الذين يصلون اليه عن طريق الاستنباط .

٣ - ايمان العارفين وهؤلاء الذين يشهدون فيه الحق دون حجاب ومثلهم في ذلك كمثل من دخل دخلة الدار فيها رجال قرأوه باعينهم . والعارفون الواصلون الى هذه المرتبة من الايمان باليقين هم احباب الله الذين يتلقون علماً لدنيا لا يستطيع العلماء المعتمدون على الاستنباط [illegible] ان يصلوا اليه او يطلعوا عليه وسبيلهم في التحقق [illegible] هذا اليقين هو التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال على الله بكنه الهمة . اي سلوك طريق الصحبة واخفاء النفس لاحظ

في الرياضة والمجاهدة فهناك في نهاية هذا السلوك يزول عن عين القلب كل [illegible] ب ويفتح من دون البصيرة كل باب وهنالك يشهد العبد الرب شهودا عينيا ويحيط بذاته احاطة كاملة تندرج فيها معرفته بكل الحقائق معرفة يقينية لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها وقد [illegible] الغزالي نفسه هذه المرتبة السامية وتحقق فيها بأتم المشاهدات [illegible] حات .

وجملة القول كما يقول الدكتور مصطفى حلمي :

أن المعرفة اليقينية عند الغزالي ليست معرفة العوام ولا معرفة المتكلمين والفلاسفة وانما هي معرفة الصوفية التي تبنى على أساس من الذوق الروحي والكشف الإلهي وهذه المعرفة تقع في قلوب خواص الأولياء بلا واسطة من حضرة الحق مثلها في هذا كمثل علم النبوة الذي أشار اليه تعالى بقوله (وآتيناه من لدنا علما) غير أنها تختلف عن هذا العلم في أنها الهام ونفث في الروع لا يدري العبد كيف حصل له ولا من أين جاء اليه في حين أن معرفة الأنبياء وحي يحصل للنبي عن طريق الملك ومع ذلك فإن كلا من النبي والولي موقن بأن العلم في الحالين انما يأتي من الله (١)

---

(١) ص ١٣٢ وما بعدها : الحياة في الاسلام .

نظرية السعادة عند الغزالى :

رتب الغزالى على نظريته فى المعرفة نظريته فى السعادة التى جعل فيها سعادة الانسان ولذته انما تكون فى معرفة الله تعالى وهذه السعادة لا تدانيها سعادة اخرى فليس هناك اجل ولا اعظم ولا امتع ولا اروع من معرفة الحق جل جلاله يقول الغزالى " سعادة كل شئ لذته وراحته ، ولذة كل شئ تكون بمقتضى طبعه وطبع كل شئ ما خلق له . فلذة العين فى الصور الحسنة ولذة الاذن فى الاصوات اللطيفة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى لانه مخلوق لها وكل مالا يعرفه بن آدم اذا عرفه فرح به مثل الشطرنج اذا عرفها فرح بها ولو نهى عنها لم يتركها ولا يبقى عنها بديلا ، وكذلك اذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة لان لذة القلب المعرفة وكلما كانت المعرفة اكبر كانت اللذة اكبر ولذلك كان الانسان اذا عرف الوزير فرح ولو عرف الملك لكان اعظم فرحا وليس موجود اشرف من الله سبحانه وتعالى لان شرف كل موجود به ومنه وكل عجائب العالم اثر من آثار صنعة فلا معرفة اعز من معرفته ولا لذة اعظم من لذة معرفته وليس منظر احسن من منظر حضرته ، وكل شهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهى تبطل بالموت ولذة معرفة الله

متعلقة بالقلب ولا تبطل بالموت لأن القلب لا يهلك بالموت هذا تكون لذته أكثر وصورته أكبر لأنه خرج من الظلمة الى النور (١)

على أن الغزالي لا يرى أن عين القلب تستطيع معرفة الله ومشاهدة جمال حضرته في الموت فقط أو فيما يشبه الموت في حال النوم وإنما هو يرى أنها تنفتح كذلك في حال اليقظة وذلك عند من أخلص الجهاد والرياضة وتخلص من الشهوة والغضب وسائر الأخلاق المذمومة فاذا خلا العبد الى نفسه وعطل طريق الحواس وفتح عين باطنه ودأب على ذكر الله بقلبه لا بلسانه حتى يصبح ولا خبر له من نفسه ولا من العالم ولا شيء يملك عليه باطنه غير مشاهدة الذات الالهية فهنالك تنفتح عين القلب ويصبح الانسان قادرا على أن يبصر في اليقظة ما يبصره في النوم وهنالك يشاهد الحقائق العليا والمناظر الجميلة الجليلة التي لا يمكن شرحها ووصفها وينكشف له ملكوت السماوات والأرض الى أن حجاب القلب عن مطالعة ذلك العالم راجع الى أنه لم يكن قد فرغ بعد من شغل الحواس والاشتغال بالعالم المادي والاقبال على ما فيه من لذات حسية لا تنبث أن تعرض له حتى تزول ، وكثيرا ما تعقب له الآلام (١)

هذه خلاصة نظرية الامام الغزالي في السعادة التي تترتب على المعرفة

---

(١) ص ١٨ — ١٩ كيمياء السعادة طبعة مصر سنة ١٣٤٣ هـ

ثم يضعها فى رسالته الصغيرة (كيمياء السعادة) وفى هـذه الرسالة التى تتبين منها أن الغزالى اتخذ من عنوانها تعبيرا — صادقا عن كيمياء السعادة الباطنية التى تقابل الكيمياء الظاهرية اذ كما توجد الكيمياء الظاهرية فى خزائن الملوك لا فى خزائن العوام ، فكذلك كيمياء السعادة لا تكون الا فى خزائن الله تعالى ولا تلتمس الا من حضرة النبوة وكل من طلبها من غير هذا السبيل فقد أخطأ الطريق • ومن هنا كان لابد لمن يريد أن يظفر بهذه السعادة أن يتعرى من كل صفات النقص ويتحلى بكل صفات الكمال (٢) وهكذا استطاع الغزالى أن يتسامى بالتصوف فيجعل منه نظرية ذوقية فى المعرفة وطريقة روحية تؤدى الى السعادة ومن قرأ كتب الغزالى القيمة ولا سيما (المنقذ من الضلال — الرسالة اللدنية — كيمياء السعادة — احياء علم الدين) يدرك أنه ترك طريق العقل وأدلته التى يسير عليها الفلاسفة والمتكلمون واستعاض عنها بالذوق الذى يركن اليه الصوفية ويتخذون منه أداة صالحة تعين على تحقيق المثل الأعلى فى المعرفة اليقينية الصادقة والسعادة

---

(١) ص ١٥ المرجع السابق

(٢) ص ٣ — ٤ المرجع السابق •

الروحيـة الرائعـــة .(١)

يقول الدكتور غلاب وهو يتحدث عن مراحل العروج فى المعرفـــة عند الغزالى أن المرحلة الأولى الى المعرفة الصوفية هى تجنب الشرور والرذائل والانغماس فى الشهوات حتى المباح منها والمرحلة الثانيـــة هى التمسك بالفضائل والتشبث بالخيرات وتنفيذ الأوامر الالهية فـــى دقة وورع والمرحلة الثالثة هى التطلع الى الرضا وانتظار الفيـــض . وبالاجمال هى كما لخصها أحد المتصوفين بقول : ان هذه المراحـــل هى التخلى والتحلى والتجلى) أى التخلى عن الشهوات محظورهـــا ومباحها والتحلى بالفضائل عظائمها وصغائرها ، والتجلى أى التطلـــع الى الافاضة الصمدانية أو كما قال صوفى آخر هى (رفض ونفض وقبض) أى رفض الانسان الخضوع للشهوات . ونفض يده من كل ماعدا اللـــه وانتظار ... النور الالهى عليه .(٢)

وبعد فهذا هو حجة الاسلام الامام الغزالى وهذا بعض مـــاح عبقريته تلك التى يفتخر بها أعلام الفكر فى مشارق الدنيا ومغاربهـــا وفى وصف قيمة الغزالى العلمية والعملية والخلقية يقول الاستاذ البارون كارادى فو (اذا نظر الانسان الى حيل نفس الغزالى وكرامته فى حياته

---

١) ص ١٣٥ الحياة الروحية فى الاســـلام .

٢) ص ٣٢٥ المعرفة عند مفكرى المسلمين د . محمد غلاب .

ـه ودماثة أخلاقه وسعة مؤلفاته وسهية المعظمى ككاتب فانـــه لا يسعه الا أن يرى فيه أحد أعالى مفكرى الفكر البشرى فى القرون الوسيطة) ويقول (دى بور) (قد وهب هذا الفتى عقلا تسندها(١) قوى الخيال لا يرضى بأى قيد يغله) ومما لاشك فيه أن الغـــزالى هو الذى وضع - تقريبا أصول التصوف السنى وقواعده وهو الذى بين طرقة ووسائله وهو الذى يحارب محاربة عنيفة ويرفض رفضا باتا نظريــة الاتحاد الحلاجية فذكر أن الاتحاد الصوفى يؤدى الى الاشــتراك فى ذات البارئ جل شأنه ، وحلول اللاهوت فى الناسوت - كزعــم الحلاج - وقبول شئ الهى فى داخل العبد معناه هدم الوحـــدة الربانية ، ولا شك أن هذا هوموضع الخلاف بين الاشاعرة والمتصوفـة فالاشاعرة - ونحن معهم - لايقبلون أن يحل الالهى فى الانـــسانى ولا أن يصعد الانسانى فى الالهى ويرفضون ونحن معهم مذهـــب الحلول وان كانوا ونحن معهم لا نرفض التصوف المعتدل الذى يسمـــو بالمرء الى درجة الكمال دون أن تصل هذه الدرجة الى حلـــول أو اتحاد ولذلك فان الصوفية قد انقسموا الى معتدلين ومتطرفـــين وليس هذا التقسيم بالجديد فى العالم الاسلامى أو فى المدارس - الاسلامية لا نزل فى ذلك بين التصوف وغيره فهناك شعبة المحافظـين وشعبة الاحرار وهناك شعبة السنيين وشعبة المبتدعين(١).

---

(١) انظر ص ٦٦ فى الفلسفة الاسلامية جـ ١ د : ابراهيم مدكور.

اثر الغزالي في الاداب اليهودية :

لقد ترجمت بعض مؤلفات الغزالي الى اللاتينيه في القرون الوسطى ولقد انتفع اليهود في تلك العصور من فلسفته وما ذلك الا لانه هاجم الفلاسفة وهجاهم ، واهم كتب الغزالي تاثيرا على اليهود هو كتاب مقاصد الفلاسفة وكتاب تهافت الفلاسفة حتى أن اليهود في هجومهم على الفلاسفة استعاروا الفاظ الغزالي وعبارته في التهافت ، ولقد بدأ اليهود بترجمه كتب الغزالي منذ القرن الثالث عشر وفي مكاتب اوربا نحو امن احدى عشر شرحا (للمقاصد) كلها تواليف يهودية ، وكذلك كتاب الغزالي ميزان العمل حيث ابدلت شواهده القرآنية والاحاديث النبوية باخرى من التوراة والتلمود ، هذا ونحب ان نلفت انظاركم الى أن اليهود لم يأخذوا عن الغزالي ولم يحترموه ذلك الاحترام العظيم الا لانه ساعدهم في هجو الفلاسفة (١)

يقول الدكتور ابراهيم مدكور (٢) :

تحت عنوان نظرية السعادة في المدارس الغربية ما نصه " قبل أن نختم بحثنا هذا نقول كلمة مختصرة عن اثر هذه النظرية في الفلسفة

---

(١) ص ٤٦ التصوف الاسلامي العربي عبد اللطيف الطباوي بيروت سنه ١٩٢٨ .

(٢) ص ٦٨ في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه ج ١ .

المدرسية اليهودية والمسيحية وفى بعض فلاسفة العصور الحديثة وفلسفة اليهود فى القرون الوسطى ، أو بعبارة أرق الدراسة اليهودية الفلسفية فى ذلك العهد هى فى الواقع صدى للفلسفة الاسلامية . واليهود هم خلفاء العرب على تراث أرسطو والفلاسفة الآخرين ، وقد فازت الفلسفة على أيديهم منذ القرن الثالث عشر الميلادى فوزا عظيما وأصبحوا أنصارها طوال القرون الثلاثة التالية فى خذلتها الشعوب الأخرى ، فأخذوا الأفكار العربية أو المعربة ونقلوها الى لغتهم وتدارسوها فيما بينهم وتتلمذوا لفلاسفة الاسلام تلمذة صادقة مخلصة) ثم تحدث بعد ذلك عن أثر نظرية السعادة فى الفكر اليهودى والمسيحى وهذا يدل دون شك على عالمية فكر الغزالى .

الفهرس